Sana'a University Journal of Human Sciences
مجلة جامعة صنعاء للعلوم الإنسانية
Vol. 1 | No. 1 | Page 604 – 632 | 2024 |
https://journals.su.edu.ye/index.php/jhs
ISSN : 2958-8677

علاقة الإمام المتوكل على الله شرف الدين يحيى بن شمس الدين بمراكز القوى في اليمن (877- 965هـ /1473-1558م)

The Relationship of Imam Sharaf al-Din Yahya bin Shams al-Din with the Centers of Power in Yemen (877-965 H / 1437-1558)

أمة الغفور عبدالرحمن علي الأمير
باحثه – قسم التاريخ والعلاقات الدولية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ جامعة صَنْعَاء ـ اليمن

Amat Al-Ghafour Abdul Rahman Ali Al-Amir
Researcher - Department of History and International Relations
Faculty of Arts and Human Sciences
Sana'a University - Yemen

الملخص:

تطرق البحث إلى إبراز شخصية الإمام شرف الدين يحيى بن شمس الدين وعلاقته بمراكز القوى في اليمن، والأوضاع السياسية حينذاك(877-965هـ/ 1473-1558م)، وتغلبه على هذه القوى الواحدة تلوى الأخرى، وسيطرته على كثير من مناطق اليمن؛ إذ أصبح صاحب الكلمة العليا فيها، وكان أبناؤه –خاصة المطهر وشمس الدين– هم من مدّوا نفوذ والدهم الإمام في المناطق المختلفة من اليمن، ولم يتبقَ للمماليك إلا تهامة وللطاهرين عدن، كما سيطر على كثير من مناطق الأشراف والأئمة في أقصى الشمال حتى وصل إلى نجران، وكذلك مدّ سيطرته على مناطق الإسماعيليين، ولكن عند تقسيم مناطق نفوذ الإمام شرف الدين بين أبنائه وظهور الخلاف والنزاع فيما بينهم، ضعفت دولته، وبعد قدوم الحملة العثمانية الضخمة إلى اليمن بقيادة سليمان باشا الخادم عام 945هـ/ 1538م، تمكّن من بسط نفوذ الدولة العثمانية الفعلية على المناطق الساحلية، وقضى على المماليك في زَبِيْد وبقية الطاهريين في عدن، وبعد مغادرته بمدة وجيزة وبسبب الخلاف الذي نشب بين أسرة الإمام شرف الدين، استطاع العثمانيون التوسع إلى المناطق الداخلية، واستولوا على كثير من مناطق الإمام بما فيها صَنْعَاء.

وقد تم تقسيم البحث إلى خمسة محاور: تناول المحور الأول الأوضاع السياسية في اليمن قبل ظهور الإمام شرف الدين، والمحور الثاني تطرق إلى علاقة الإمام شرف الدين بالمماليك، أما المحور الثالث فقد تناول علاقته بالأشراف والأئمة والإسماعيليين، في حين تناول المحور الرابع علاقته بالطاهريين، خاصة بعد مقتل السلطان الطاهري عامر بن عبدالوهاب على يد المماليك، أما المحور الخامس والأخير فقد تطرق إلى علاقته بالعثمانيين والأسباب التي ساعدتهم على توسيع مناطق نفوذهم في كثير من مناطق اليمن.

الكلمات المفتاحية: الإمام شرف الدين، المماليك، الطاهريون، الأشراف والأئمة، العثمانيون.

Abstract:

The research highlighted the character of Imam Sharaf al-Din Yahya bin Shams al-Din and his relationship with the centers of power in Yemen، the political situation at that time (877-965 H / 1473-1558)، his defeat of this force one after another، and his control over several regions of Yemen. He became the sole control. There was greatness in it، and his sons - especially Al-Mutahhar and Shams Al-Din - were able to extend the influence of their father، the Imam in the different regions of Yemen. and the Mamluks had only the Tihama and the Tahirids had only Aden. They also controlled many areas of al-Ashraf (the nobles) and Imams in the far north until he reached Najran. He also extended his control over the Ismailis areas. But when the areas of influence of Imam Sharf al-Din were divided between his sons، and disagreement and dispute between them arose، his state had been weakened. After the arrival of the Ottoman Empire to Yemen led by of Suleiman Pasha Al-Khadim in 1538، he was able to extend the actual Ottoman Empire's influence over coastal areas، the Mamluks، and eliminated the Mamluks in Zabid and the rest of the Tahirids in Aden. Shortly after his departure، and because of the disagreement that broke out between the family of Imam Sharaf al-Din، the Ottomans were able to expand into the interior regions، taking over many of the Imam’s regions، including Sana’a.

The research is divided into five axes: the first axis dealt with the political situation in Yemen before the emergence of Imam Sharaf al-Din. The second axis discussed Imam Sharaf al-Din’s relationship with the Mamluks. The third axis touched on his relationship with al-ashraaf (the nobles)، the imams، and the Ismailis. Whereas the fourth axis presented his relationship with the Tahirids، especially after

the Tahirid Sultan Ghamer bin Abdulwahab was killed by the Mamluks. As for the fifth and final axis، it touched on his relationship with the Ottomans and the reasons that helped them to expand their influence in many regions of Yemen.

Keywords: Imam Sharaf al-Din، the Mamluks، the Tahirids، al-Ashraaf or the nobles and imams، the Ottomans.

المقدمة:

إن تاريخ اليمن حافل بالكثير من الشخصيات المهمة التي أدّتْ دوراً بارزاً في تاريخ اليمن، من بنيها شخصية الإمام شرف الدين يحيى بن شمس الدين، الذي برز أولاً بعلمه واجتهاده ومؤلفاته، ثم بعلاقته مع مركز القوى الموجودة في اليمن.

لقد تمكن الإمام شرف الدين من التغلب على تلك القوى بعد أن خاض معها حروباً طويلة، غير أن دوره السياسي لم يبرز بروزاً واضحاً إلا بعد مقتل السلطان عامر بن عبدالوهاب على يد المماليك؛ إذ دخل الإمام في حروب مع المماليك، وتمكّن خلالها من إخراجهم من كثير من المناطق وحصرهم في الساحل التهامي، أما الطاهريون فقد حاربهم وأخرجهم من كثير من مناطق نفوذهم، ولم يبقَ لهم إلا عدن التي سيطر عليها العثمانيون بقيادة سليمان باشا الخادم عام 1538م، وكان ذلك إيذاناً بانتهاء الدولة الطاهرية.

ومن مراكز القوى الأخرى التي كان لها علاقة متباينة مع الإمام شرف الدين فهم الأشراف والأئمة، فكانوا يحاربونه حيناً ويدخلون معه في هدنة حيناً آخر، حتى تمكّن من السيطرة على مناطق نفوذهم، كما حارب الإسماعيليين وسيطر على مناطق نفوذهم.

أما العثمانيون والذين لم يكن لهم إلا سلطة إسمية في اليمن، فقد تمكنوا بعد مغادرة حملة سليمان باشا الخادم في مدة قصيرة من التوسع في مناطق نفوذ الإمام شرف الدين بسبب الصراع والمنافسة بين أبنائه التي أضعفت من موقفه أمام العثمانيين.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في أهمية شخصية الإمام شرف الدين يحيى بن شمس الدين، وفي مدته المليئة بالأحداث الكثيرة والمتداخلة التي نسجت وقائعها شخصية قوية متضاربة الاتجاهات، مختلفة المقاصد، استجابت له معظم المناطق الشمالية، وحضرت إليه الكثير من الوفود من مناطق مختلفة مبايعة له، وبسط نفوذه في اليمن على حساب مراكز القوى الأخرى وتغلب عليها.

كما تكمن أهميته –أيضاً– في رسائل الإمام شرف الدين التي لا يزال معظمها مخطوطاً التي أرسلها إلى بعض مراكز القوى في اليمن، مثل: الطاهريين والمماليك والأشراف والأئمة.

وتكمن أهمية البحث –أيضاً– في العوامل الرئيسة التي كانت وراء ضعف موقف الإمام شرف الدين وسيطرة العثمانيين على كثير من مناطق نفوذه.

مشكلة البحث:

يحاول البحث الإجابة عن مجمل من التساؤلات الآتية:

1- ماهي الإرهاصات التي ساعدت الإمام شرف الدين على بروز دوره السياسي؟

2- كيف كانت علاقة الإمام شرف الدين بمراكز القوى في اليمن، سواءً أكانت داخلية أم خارجية؟

3- ما أهم ما تضمنته رسائل الإمام شرف الدين إلى بعض مراكز القوى في اليمن؟

4- ما أسباب الصراع بين أبناء الإمام شرف الدين؟ وما ترتب على هذا الصراع من ضعف أسرته وسيطرة العثمانيين على مناطق نفوذه؟

هدف البحث:

يهدف البحث إلى:

1- معرفة الإرهاصات التي كانت سبباً في ظهور دور الإمام شرف الدين.
2- التعرّف على دور الإمام شرف الدين السياسي بعد القضاء على الدولة الطاهرية.
3- فهم الأسباب التي سهلت للإمام شرف الدين السيطرة على مناطق نفوذ المماليك ووصوله إلى صَنْعَاء.
4- معرفة علاقة الإمام شرف الدين بالأئمة والأشراف والإسماعيليين وكيف قضى على نفوذهم جميعاً.
5- التعرّف على أهم الأسباب التي أدت إلى سيطرة العثمانيين على كثير من مناطق اليمن.

الدراسات السابقة:

في حقيقة الأمر إن شخصية الإمام المتوكل على الله شرف الدين يحيى بن شمس الدين تطرقت إليها عدد من الكتابات والدراسات التي تحدثت عنه خلال مدة حكمه وعلاقته بمراكز القوى في اليمن، والأوضاع السياسية حينذاك(877-965هـ/ 1473-1558م)، وتغلبه على هذه القوى الواحدة تلوى الأخرى، وسيطرته على كثير من مناطق اليمن؛ إذ أصبح صاحب الكلمة العليا فيها ، إلا أنها تطرقت إلى الموضوع بوجه عام ، إضافة إلى قلة تلك الدراسات التاريخية الأكاديمية التي تناولت شخصية الإمام شرف الدين يحيى بن شمس الدين وعلاقته بمراكز القوى في اليمن، ولعل ذلك هو ما يتوخاه هذا البحث من حيث إيجاد بحث تحليلي متخصص، يتناول فيه تلك العلاقة، من جانب تسليط الضوء عليها ومن ثَمّ الوصول إلى النتائج التي ترتبت من خلالها تلك العلاقة ؟

ومن هذه الدراسات على سبيل المثال لا الحصر، ما كتبه عبدالرحمن بن علي بن الديبع في كتابه(الفضل للمزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زَبِيْد، تحقيق: يوسف شلحد، دار العودة، بيروت، 1983م.)، وأيضاً ما كتبه محمد بن محمد زبارة في كتابه(أئمة اليمن، مطبعة النصر الناصرية، تعز، 1952م، ج1.)، إضافة إلى ما تطرق إليه الأستاذ الدكتور سيد مصطفى سالم في كتابه(الفتح العثماني الأول لليمن (1538-1635م)، ط3، مطبعة الجبلاوي، القاهرة، 1977م.)، ومن الدراسات التي تناولت الموضوع أيضاً ما كتبه أحمد حسين شرف الدين، في كتابه(اليمن عبر التاريخ من القرن الرابع عشر قبل الميلاد إلى القرن العشرين (دراسة جغرافية تاريخية سياسية شاملة)، ط2، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 1964م.)

منهج البحث:

اعتمدت دراسة البحث على المنهج التاريخي التحليلي.

خطة البحث:

يشتمل البحث على مقدمة وخمسة محاور وخاتمة (نتائج وتوصيات)، المقدمة وتشمل على أهمية البحث، هدف البحث، وإشكالية البحث، والدراسات السابقة، ومنهجية البحث، وخطة البحث.

المحور الأول: الأوضاع السياسية التي سبقت ظهور الإمام المتوكل على الله شرف الدين يحيى بن شمس الدين:

إنه من الأهمية بمكان إلقاء الضوء في الأوضاع السياسية في اليمن خلال المدة التي سبقت ظهور

الإمام شرف الدين، لتتضح أهم التغيرات التي حدثت بعد ظهوره.

لقد سيطرت الدولة الطاهرية على معظم أجزاء اليمن، وبلغت هذه الدولة أوجّ قوتها في عهد السلطان عامر بن عبدالوهاب (894-923هـ/1489/1517م)، وقد ظل السلطان عامر حتى مجيء المماليك يوطد قاعدة حكمه ويوسع نفوذه حتى وصل إلى أقصى الشمال وأقصى الجنوب ما عدا بعض المناطق التي كان يحكمها بعض الأئمة الزيديين، وفي عهده ازدهرت اليمن اقتصادياً، فاهتم بتأمين الطرق التجارية وتنشيط الموانئ اليمنية، وعلى وجه الخصوص ميناء عدن، الذي كان في عهده من أنشط الموانئ العالمية تجارة، إلا أن أحداثاً عالمية أثرت سلباً في الدولة الطاهرية، تلك هي الكشوف الجغرافية وما ترتب عليها من احتكار البرتغاليين لتجارة الشرق والغرب احتكاراً كاملاً، فقد هاجموا مدينة عدن عام 1485هـ/1513م بغرض احتلالها، غير أن أهالي عدن استبسلوا في الدفاع عنها[1].

وكان السلطان عامر بن عبدالوهاب قد أرسل إلى سلطان الدولة المملوكية قانصوه الغوري (1501-1517م) يطلب منه المساعدة ضد البرتغاليين، حيث إن المماليك في مصر قد تضرروا أيضاً من الحصار الاقتصادي، وحاولوا التصدي للبرتغاليين في البحر الأحمر، فجهز الغوري حملة بقيادة حسين الكردي عام 911هـ/1505م إلى البحر الأحمر ووصلت إلى عدن، ورحب بها حاكمها من الطاهريين وأبدى استعداده لمساعدة الحملة ضد الخطر البرتغالي فقام الطاهريون بإرسال حملة من ميناء عدن عام 913هـ/1507م، ولم يتضح أين كانت معارك هذه الحملة، غير أنها اصطدمت بالإمكانيات البرتغالية وانسحبت، وتوجه حسين الكردي إلى الهند لمحاربة البرتغاليين، لكنه هُزم في معركة ديو البحرية عام 915هـ/1509م[2].

وفي عام 921هـ/1515م توجه حسين الكردي على رأس حملة إلى البحر الأحمر؛ إذ كان السلطان عامر بن عبدالوهاب قد وافق على إقامة قواعد مملوكية في عدن عام 919هـ/1515م، إلا أن تأخر الحملة وفشل الهجوم البرتغالي على عدن دون أي مساعدة جعله يغير رأيه في مسألة إقامة قواعد مملوكية فيها [3].

وعندما وصلت الحملة إلى جيزان [4] أرسل حسين الكردي قائد الحملة رسولاً إلى السلطان عامر يخبره بوصول الحملة لمحاربة البرتغاليين ويطلب مساعدته، إلا أنه لم يجب على رسالته إجابة واضحة، ثم توجهت الحملة إلى كمران[5] ليعيد إعمارها وتحصينها بعد

(1) سالم، سيد مصطفى: الفتح العثماني الأول لليمن (1538-1635م)، ط3، مطبعة الجبلاوي، القاهرة، 1977م، ص69-

(2) الحميري، أمل عبدالمعز: موقف بريطانيا من جزيرتي سقطرى وكمران من الإحتلال إلى الإستقلال، ط1، نور حوران للدراسات والنشر والتراث، دمشق، 2020م، ص54-55.

(3) هُديل، طه حسين وآخرون: دور السواحل اليمنية في تحقيق الإستراتيجية العثمانية في البحر الأحمر، 1538-1635م، ط1، نور حوران للدراسات والنشر والتراث، دمشق، 2021م، ص127.

(4) جيزان: بلدة على ساحل البحر الأحمر من جهة صبيا وأبي عريش يتبعها عدد من الأودية الزراعية والقرى والجبال بالمخلاف السليماني. (الحجري، محمد بن أحمد: مجموع بلدان اليمن وقبائلها، تحقيق: إسماعيل بن علي الأكوع، ط1، دار النفائس، بيروت، 1984م، مج1، ج1، ص171؛ الجاسر، حمد: المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، 1977م، ج1، ص223).

(5) كمران: من أهم الجزر اليمنية الواقعة على البحر الأحمر، تقع على مسافة خمسة أميال أمام ميناء الحديدة، كانت مركزاً لتوقف السفن في طريقها عبر البحر الأحمر، لموقعها المهم القريب من الساحل اليمني، ومن هنا اتخذتها القوات البرتغالية، ثم المملوكية وبعدها العثمانية مركزاً محصناً للإنزال في السواحل اليمنية (لقمان، حمزة علي: تاريخ الجزر اليمنية، مطبعة فيليب الجميل، بيروت، 1972م، ص7؛ الفسيل، سامية محمد عبدالله: المحاولات البرتغالية التوسعية في السواحل اليمنية خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي وتداعياتها، أطروحة دكتوراه، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية، ماليزيا، 2013م، ص209).

الخراب الذي خلفه فيها البرتغاليون بقيادة البوكيرك [6] عام 919هـ/1513م، ومن هناك كرر الكردي الاتصال بالسلطان عامر، وأرسل له ولابنه الهدايا، وذكَّره بما سبق له من المكاتبات إلى السلطان المملوكي قانصوه الغوري في طلب النجدة ضد البرتغاليين [7].

وكان السلطان عامر قد مال إلى فكرة التعاون مع المماليك للتصدي للبرتغاليين وإبعادهم عن منطقة البحر الأحمر، إلا أن أحد مستشاريه وهو علي بن محمد البعداني [8] أشار عليه بعدم تلبية طلبهم، وعلى ما يبدو أن السلطان عامر قد اقتنع بوجهة النظر هذه، وخشى أن يكون ذلك بداية لنفوذ سياسي وعسكري للمماليك في اليمن، وأنه إذا ما تعاون معهم قد يقع تحت نفوذهم، خاصة أنهم قد سيطروا بالفعل على جزيرة كمران التابعة للدولة الطاهرية.

ويصور لنا المؤرخ عيسى بن لطف الله الرد على الرسولين اللذين أرسلهما حسين الكردي، فيذكر أن السلطان عامر أوكل إلى علي بن محمد البعداني بالرد عليهما، فأسمعهما كلاماً قاسياً، بما فيه أنه لولا أن الرسل لا تُقتل لقتلتكما[9]، من هنا تحددت العلاقة بين السلطان عامر والمماليك، وهي علاقة غير ودّية، كما أن عدم التعاون بينهما لصد الخطر البرتغالي كان واحداً من العوامل التي أضعفت جبهة المقاومة ضد الخطر البرتغالي، وزادت الفجوة بين السلطان عامر والمماليك، ووجدت أسباب للاحتكاك بين الطرفين، فقد بدأ المماليك بتحصين جزيرة كمران وبناء سور حولها، وحاولوا الحصول على إمداد من المؤن والطعام عن طريق بعض الموانئ اليمنية، بيد أن السلطان عامر أصدر أوامره بعدم إمدادهم بشيء من ذلك حتى يغادروا جزيرة كمران، وبناءً على تلك الأوامر احتجز حاكم الحديدة ثلاث سفن مملوءة بالمؤن والطعام كانت قادمة من زيلع، فأرسل الكردي رسولاً يهدد حاكم الحديدة، لكن دون جدوى، عندئذ قام المماليك بضرب ميناء الحديدة بالمدافع[10]، وهرب أهلها ودخلها المماليك ودمروها وأخذوا ما يلزمهم من أموال وطعام وأخشاب[11]، وكان ذلك أول صدام بين السلطان عامر والمماليك.

لقد وجدت بعض القوى المحلية في المماليك فرصة سانحة للقضاء على سلطة عامر بن عبدالوهاب فأخذت تحرضهم على دخول اليمن والقضاء على نفوذه، من هؤلاء الإمام شرف الدين يحيى بن شمس الدين، كما سنرى لاحقاً، تواصل معهم حاكم اللحية، الذي شعر بقوتهم وعرض عليهم أن يساعدهم في التوغل في المناطق التّهَامِيّة ، فأرسل المماليك معه مائة جندي مسلحين بالبنادق وتمكنوا من احتلال

---

[6] البوكريك: قائد بحري سياسي برتغالي، أخضع منطقة المحيط الهندي بالكامل للسيطرة البرتغالية، وقد عينه الملك البرتغالي عمانويل الأول جنرالا ودوقا لمدينة جوا سنة 1501ه (الفسيل، ساميه محمد عبدالله: المحاولات البرتغالية التوسعية في السواحل اليمنية خلال القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي وتداعياتها، اطروحة دكتوراه كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الاسلامية العالمية، ماليزيا، يونيو2013م، ص176).

[7] سالم، سيد مصطفى: الفتح العثماني الأول لليمن، ص98؛ الحميري، أمل: موقف بريطانيا من جزيرتي سقطرى وكمران، ص60.

[8] هو الأمير علي بن محمد البعداني، كان وزيراً وقائداً للسلطان عامر بن عبدالوهاب، أشرف على بناء المدرسة العامرية في مدينة رداع عام 910ه/1504م. (ابن المفضل: محمد بن إبراهيم: السلوك الذهبية في خلاصة السيرة المتوكلية اليحيوية (877-965ه/1473-1558م)، حققها وقارن أصولها أمة الملك الثور، أمة الغفور الأمير، إشراف ومراجعة: حسين العمري، ط1، مركز التراث والبحوث اليمني، صنعاء، 2021م، هامش ص75.

[9] ابن لطف الله، عيسى: روح الروح فيما جرى بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح، (مخطوط مصور)، ط2، دار الفكر، دمشق، 1981م، ص19-20.

[10] ابن الديبع، عبدالرحمن بن علي بن محمد: الفضل للمزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، تحقيق: يوسف شلحد، دار العودة، بيروت، 1983م، ص359-360.

[11] ابن لطف الله: روح الروح، ج1، ص20.

مدينة مور[12][13]، وشق المماليك بذلك أول طريق نحو داخل تهامة، مدججين بأسلحة البنادق التي يُعزى إليها ما حققوه من نصر سريع فلم تكن حينذاك معروفة في اليمن، وكان اليمنيون يحاربونهم بالأسلحة التقليدية البسيطة[14]، تلا ذلك الزيدية[15] التي اتصل أهلها بالمماليك وأبدوا استعدادهم للتعاون معهم، فأمدهم حسين الكردي بمائتين من جنوده، واتجهوا إلى قرية الضحي[16] وقاموا بإحراقها وتدميرها[17].

ومن المرجح أن هناك أسباباً لاتصال هؤلاء بالمماليك ومساعدتهم ضد السلطان عامر بن عبدالوهاب، لعل أهمها:

1- يريدون التخلص من الضرائب التي أثقلت كواهلهم التي كان يفرضها عليهم السلطان عامر.
2- لعلهم شعروا بقوة المماليك، وأن السلطان عامر أضعف من أن يواجههم.
3- ربما أنهم أدركوا أن الهجوم الذي قام به المماليك على السواحل اليمنية كان شرعياً إلى حدٍ ما، لقطع الطريق على الأفرنج البرتغاليين الذين توغلوا في البحر الأحمر وأرادوا الوصول إلى الأماكن الإسلامية المقدسة [18].

إزاء التحركات المملوكية، وانضمام بعض اليمنيين إليهم بدأ السلطان عامر يعد العدة، فجهز جيشاً بقيادة أخيه عبدالملك لمواجهتهم، وعندما سمع حسين الكردي بذلك سارع بالنزول من كمران بألف مقاتل إلى القرب من مدينة زَبِيْد[19]، ودارت معركة بين الطرفين لم يحقق أي منهما نصراً على الآخر[20]، ثم تقدم المماليك- بتشجيع من حلفائهم اليمنيين- لمحاصرة زَبِيْد، فخرج لمواجهتهم عبدالملك أخو السلطان عامر كذلك عبدالوهاب ابن السلطان عامر، غير أن جيش السلطان هُزم وجُرح ابنه، فهرب عبدالملك بابن أخيه إلى تعز[21] الذي توفي هناك، أما حسين الكردي، فقد دخل زَبِيْد بجنوده في 9جمادى الأولى 922هـ/21 يونيو 1516م وسلبوا ونهبوا ، وصادر الكردي أموال التجار والكثير من الأهالي، ثم عين برسباي قائداً للجند في زَبِيْد وغادر إلى عدن، ثم إلى جدة[22].

وقد أشار المؤرخ عيسى بن لطف الله إلى أن مغادرة الكردي كان بسبب خلاف مع الجنود المماليك؛ إذ وعدهم بأنه سيمنحهم المزيد من العطايا إذا ما دخلوا زَبِيْد، لكنه خلف وعده وخشى من ثورة الجند عليه[23]، وربما أنه توجه إلى عدن أولاً؛ لأنه كان يريد أن يتلمس الوضع فيها؛ إذ كان المماليك يسعون إلى اتخاذ مينائها قاعدة للنشاط البحري المملوكي في المحيط الهندي ضد البرتغاليين، ولعلهم فكروا في ذلك بعد إدراكهم الضعف الذي يعاني منه الطاهريون وعجزهم عن حماية اليمن وباب المندب، وأصبح هدفهم القضاء على الدولة الطاهرية، ومرابطة الأسطول المملوكي

(12) مور: مدينة في وادي مور، اكبر أودية تهامة التي تصب في البحر الأحمر، يطلق عليه ميزاب تهامة الأعظم. (الحجري، محمد بن أحمد: مجموع بلدان اليمن وقبائلها، تحقيق: إسماعيل بن علي الأكوع، مج2، ج4، ص723.
(13) ابن الديبع: الفضل للمزيد، ص360.
(14) الواسعي، عبدالواسع بن يحيى: تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث تاريخ اليمن، ط1، مكتبة الإرشاد، صنعاء، 2007م، ص196؛ العمري، حسين بن عبدالله: المؤرخون اليمنيون في العصر الحديث، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1988م، ص8.
(15) الزيدية: مدينة في تهامة، من ناحية وادي سردد شمالي الحديدة، تشمل عدد من القرى. (الحجري: مجموع بلدان اليمن، مج1، ج2، ص397.)
(16) الضحي: بلدة مشهورة في تهامة من أعمال الزيدية بوادي سردد. (الحجري: مجموع بلدان اليمن، مج2، ج3، ص552).
(17) ابن الديبع: الفضل للمزيد، ص36.
(18) الحميري: موقف بريطانيا من جزيرتي سقطرى وكمران: ص61.
(19) زبيد: تقع في سهل تهامة، اشتهرت بالعلم والعلماء. (الحجري: مجموع بلدان اليمن، مج1، ج2، ص381.)
(20) ابن لطف الله: روح الروح، ج1، ص22.
(21) تعز: مدينة واسعة تحت جبل صبر، جنوب صنعاء، وهي مركز المحافظة.
(22) الشماحي، عبدالله بن عبدالوهاب، اليمن الإنسان والحضارة، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، 1985م، ص151.
(23) ابن لطف الله: روح الروح، ج1، ص22.

في البحر الأحمر لتأمينه من الخطر البرتغالي، الذي كان يهدد الأماكن المقدسة في الحجاز[24].

وبعد مغادرة حسين الكردي اليمن واصل المماليك جهودهم بقيادة برسباي لتعزيز وجودهم وإحكام قبضتهم في تهامة، فتوسعوا في مناطق نفوذ السلطان عامر بن عبدالوهاب، واستولوا عليها الواحدة تلو الأخرى.

أما السلطان عامر فقد جهز نفسه بحملة جديدة وتوجه إلى زَبِيْد، ولمّا علم المماليك أرسلوا إليه رسولاً لطلب الصلح، وكاد يميل إليه، فأشار عليه بعض أتباعه بعدم القبول؛ لأن طلبهم الصلح ليس إلا مكيدة، فرفض الصلح واتجه بجيشه إلى قرية التربية [25]، وبعد معارك عديدة هُزم السلطان عامر واتجه إلى تعز بمن بقى من جنده [26]، وفي 923هـ/1517م توجه المماليك إلى تعز فلمّا علم السلطان عامر بقدومهم ترك تعز متجهاً إلى إبَّ[27]، ودخل المماليك تعز، وفي كل مرة يحتلون فيها مدينة يقومون بالسلب والنهب ومصادرة أموال التجار[28].

وبعد الاستيلاء على تعز عيَّن برسباي أحد مساعديه حاكماً عليها واتجه إلى المقرانة[29]، المقر الرئيس للسلطان عامر، وكان السلطان عامر في إب، فلمّا علم أسرع نحو المقرانة وأخرج أهله وما أمكنه من الذخائر والأموال، فدخلها المماليك عقب خروجه منها واستولوا على ما وجدوه فيها[30]. وفي هذه الأثناء وصل إلى الأمير برسباي بعض من قبائل منطقة آل عمَّار [31]، أعلنوا الولاة والطاعة، وطلبوا منه أن يأتي إلى منطقتهم لاستلامها، غير أنه عندما خرج معهم قتلوه مع معظم جنوده [32].

وبعد مقتل برسباي ولَّى المماليك عليهم الإسكندر المخضرم[33]، فأقام في المقرانة أياماً وقبض على رجل من أصحاب السلطان عامر دلَّه على خزائن في قصور السلطان بها الأموال والجواهر، فأخذها الإسكندر ووزعها على جنوده، ثم أمر بقتل ذلك الرجل وتوجه بجنده إلى صَنْعَاء[34]، ولما علم السلطان عامر تحرك نحو صَنْعَاء وتواجه مع المماليك في معركة كبيرة، قرب صَنْعَاء قُتل فيها أخاه عبدالملك، ولما شعر السلطان بالهزيمة فر من أرض المعركة محاولاً التوجه إلى حصن ذي مرمر[35]، إلا أن المماليك تمكنوا من القبض عليه وإعدامه في 22 ربيع الثاني 923هـ/1517م[36].

وبمقتل السلطان عامر بن عبدالوهاب ضعفت الدولة الطاهرية وتفككت ودخل المماليك صَنْعَاء، وانتقلت اليمن إلى مرحلة جديدة، فعلى الرغم من أنه بقيت أجزاء في الجنوب خاضعة للأسرة الطاهرية، فإن قوة الدولة قد انتهت، ونشبت صراعات داخل الأسرة

(24) هُديل، طه حسين وآخرون: دور السواحل اليمنية في تحقيق الاستراتيجية العثمانية في البحر الأحمر، ص127-129.
(25) التربية: قرية كبيرة بالقرب من مدينة زبيد من الجهة الشرقية الجنوبية. (المقحفي، إبراهيم أحمد: معجم البلدان والقبائل اليمنية، ط3، دار الكلمة، بيروت، 2002م، ج1، ص227)
(26) ابن الديبع: الفضل للمزيد، ص368-369.
(27) إبّ: مدينة مشهورة في الجنوب الغربي من صنعاء، ذات أرض خصبة وهواء معتدل، عاصمة محافظة إبّ. (الحجري: مجموع بلدان اليمن، مج1، ج1، ص31).
(28) ابن المفضل: السلوك الذهبية، ص76-77.
(29) المقرانة: بلدة أثرية مشهورة، من أعمال رداع، في مديرية جُبن، بالقرب من حمام دمت المشهور شرقاً. (الحجري: مجموع بلدان اليمن، مج2، ج4، ص717).
(30) ابن لطف الله: روح الروح، ج1، ص27.
(31) عمَّار: مخلاف من ناحية النادرة في محافظة إبّ. (الحجري: مجموع بلدان اليمن، مج2، ج3، ص611).
(32) ابن المفضل: السلوك الذهبية، ص78.
(33) أُطلق عليه بالمخضرم لأنه عاصر العهدين المملوكي والعثماني في اليمن.
(34) ابن المفضل: المصدر السابق، ص78-79.
(35) حصن ذي مرمر: حصن مشهور إلى الشمال الشرقي من صنعاء على مسافة 25 كيلومتر. (الأكوع، إسماعيل بن علي: هجر العلم ومعاقله في اليمن، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1995م، ج2، ص788-789).
(36) ابن الديبع، عبدالرحمن بن علي: قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، ط2، (د.م)، 1988م، ص469.

الطاهرية أدت إلى تفككها وانكماش ما تبقى من مناطق نفوذها.

وفي هذه المدة ظهر الإمام شرف الدين يحيى بن شمس الدين الذي كان في الظفير [37] بحجة تأديته دوراً سياسياً كبيراً في اليمن، فمن هو الإمام شرف الدين؟ وكيف بدأت دعوته؟ وكيف كانت علاقته بالمماليك؟ هذا ما سنحاول التعرف عليه في المحور التالي.

المحور الثاني: الإمام المتوكل على الله شرف الدين وعلاقته بالمماليك:

أولاً: الإمام شرف الدين وإعلان إمامته:

قبل الدخول في علاقة الإمام شرف الدين بمراكز القوى الموجودة في اليمن لا بد أن نتعرف على شخصيته وإعلان إمامته.

هو الإمام شرف الدين يحيى بن شمس الدين بن الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى. وله اسمان اشتهر بأحدهما وهو شرف الدين والآخر يحيى ولم يشتهر به[38]. ولد عام 877هـ/1473م بحصن حضور الشيخ[39][40]، أكمل قراءة القرآن بمدينة ذمار [41] وهو في الثامنة من عمره، ثم عاد إلى حصن الظفير بعد استيلاء عامر بن داود الطاهري على ذمار، وبدأ الإمام شرف الدين في الظفير بقراءة الفقه على أيدي أشهر العلماء، كذلك اللغة العربية وفنونها وآدابها، ولمّا بلغ السادسة عشر من عمره اتجه إلى صَنْعَاء، وتضلع في العلوم العقلية والنقلية على أيدي علماء مبرزين فيها، وأجاد الشعر والنثر على أنواعه من الافتخار والمدح والغزل والرثاء[42]، ويعدّ الإمام شرف الدين من الأئمة المجتهدين في المذهب الزيدي، وكان معتدلاً بالنسبة لموقفه من المذاهب الأربعة، ويعدّ المذهب الزيدي مذهباً خامساً، وقرب إليه العلماء من أهل هذه المذاهب[43].

وللإمام شرف الدين مؤلفات ورسائل كثيرة لعل أهمها:

1- الأثمار في فقه الأئمة الأطهار، من أشهر كتب الفقه، شرحه كثير من العلماء.
2- كتاب الأحكام في أصول المذهب.
3- قصيدته المشهورة قصص الحق في مدح وذكر معجزات سيد الخلق، من أهم ما نظم من شعره، وهي منظومة في مائة وخمسين بيتاً، قام بشرحها كثير من المهتمين.

كما أن له رسائل وأجوبة في كثير من المسائل [44].

أما بداية دعوته فقد دعا لنفسه بالإمامة في 10 جمادى الأولى 912هـ/26 يوليو1506م، وتلقب بالإمام المتوكل على الله وكانت دعوته في الظفير بحجة، أقام بها حوالي شهرين استقبل خلالها الوفود التي كانت تأتي لمبايعته [45] ثم توجه إلى مَسْور [46]

---

[37] الظفير: حصن مشهور في حجة، يُعرف بظفير حجة، به قبر الإمام شرف الدين موضوع بحثنا. (الحجري: مجموع بلدان اليمن، مج2، ج3، ص567)

[38] الشوكاني، محمد بن علي: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار المعرفة، بيروت، (د. ت)، ج1، ص278.

[39] حص حضور الشيخ: فرع من جبال المصانع، غربي مدينة ثلا، شمال غرب صنعاء. (الحجري: مجموع بلدان اليمن، مج1، ج2، ص277).

[40] ابن لطف الله: روح الروح، ج1، ص11.

[41] ذمار: مدينة تقع جنوب صنعاء على بعد 100كم2، وهي عاصمة المحافظة، كانت أحد مراكز العلم والثقافة العربية والإسلامية في اليمن، جامعها من أقدم المساجد الإسلامية. (الموسوعة اليمنية، إعداد وإشراف وتحرير: أحمد جابر عفيف وآخرون، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1992م، ج1، ص472؛ المقحفي: معجم البلدان، ج1، ص649).

[42] للمزيد عن العلوم التي تلقاها ومشائخه وتلاميذه انظر: ابن المفضل: السلوك الذهبية، ص37-43؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج1، ص278-280.

[43] النهراولي، قطب الدين محمد بن أحمد: البرق اليماني في الفتح العثماني، دار اليمامة، الرياض، 1967م، ص59-60.

[44] للمزيد عن مؤلفاته أنظر: الحبشي، عبدالله بن محمد: مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن، مركز الدراسات اليمنية، صنعاء، (د. ت)، ص604-606.

[45] ابن المفضل: السلوك، ص56-57.

[46] مَسْوَر: ناحية من أعمال حجة مشهورة. (الحجري: مجموع بلدان اليمن، مج2، ج4، ص708).

ولاعة [47] وجبل تَيْس[48] وذَهْبَان[49]، وأرسل أخاه علي إلى الحَيْمَة [50].

ومن المرجح أن خروج الإمام شرف الدين إلى تلك المناطق كان لغرض كسب ولاءها إذا تمكن من التوسع في المناطق التي كانت تحت سيطرة الطاهريين، لكنه في هذه الفترة (912هـ/1506م) كان يقتصر نشاطه على المناطق البعيدة عن نفوذ الدولة الطاهرية، وفي الوقت ذاته كان يحرض أعداء الدولة الطاهرية، وكسبهم إلى جانبه كلما سنحت الفرصة بذلك.

وبعد مقتل السلطان عامر بن عبدالوهاب وتفكك الأسرة الطاهرية ظهر الإمام شرف الدين ليلعب دوراً سياسياً كبيراً، إذ تهيأت له الظروف أكثر من ذي قبل. ولم تكن قوة الإمام شرف الدين هي الوحيدة في الساحة اليمنية بعد ضعف الدولة الطاهرية، بل كان هناك مراكز قوى أخرى، فقد ظهر أئمة عارضوا الإمام شرف الدين، أيضاً الأشراف الذين كان يمتد نفوذهم إلى عمران [51]، وبقايا أسرة الدولة الطاهرية، وقوة المماليك، والقوى القبلية الأخرى التي لا ترتبط مباشرة بالقوة السابقة، وآخر هذه القوى التي واجهها الإمام شرف الدين كانت قوة الدولة العثمانية. لقد خاضت هذه القوى حروباً وصدامات كل منها حاولت أن توسع نفوذها على حساب القوى الأخرى، ولم تستطع أي منها حسم الأمر نهائياً لصالحها، إلا أن الإمام شرف الدين كان أبرز تلك القوى؛ إذ تمكّن من توسيع نفوذه على حساب القوى الأخرى، الأمر الذي جعله يصطدم بها جميعاً.

ثانياً: علاقة الإمام شرف الدين بالمماليك:

لقد اتضح سابقاً الهدف الرئيس من قدوم الحملة المملوكية إلى اليمن والأسباب التي أدت إلى نشوب الحرب بين المماليك والطاهريين. وكيف انتهى الأمر بهزيمة الطاهريين وانحسارهم في الجنوب، وسيطرة المماليك على كثير من مناطقهم المهمة، مثل: صَنْعَاء وزَبِيْد.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا كيف كان أول تواصل بين الإمام شرف الدين والمماليك؟ وما طبيعة هذا التواصل؟

تمت الإشارة إلى أن الإمام شرف الدين بعد إعلان إمامته لم يتمكن من التوسع، وكان نشاطه يقتصر على بعض المناطق البعيدة عن مناطق نفوذ السلطان عامر بن عبدالوهاب، وعندما وصل المماليك إلى اليمن رأى أن الفرصة مواتية له، فبدأ بمراسلتهم وتحريضهم ضد السلطان عامر بن عبدالوهاب.

لقد كانت أول رسالة من الإمام شرف الدين للمماليك عندما سمع بوصولهم إلى جزيرة كمران، فأرسل في عام 921هـ/1515م وفداً برئاسة مبعوثه صلاح الدين سراج ومعه رسالة إلى حسين الكردي، قائلة الحملة المملوكية تضمنت هجوماً على السلطان عامر "وبذل المعاونة على استخلاص ساير البلاد من يد هذا الطاغي وأعوانه وأنصاره، فقد بقى لنا بلاد مجاورة

(47) لَاعة: جنوب جبل مسور وهو اليوم مركز إداري من مديرية الطويلة وأعمال محافظة المحويت. (ابن المفضل: السلوك، هامش ص58).

(48) جل تيس: جبل مشهور في المحويت.

(49) ذَهْبَان: قرية من عزلة الرَوْحاني في بني حَبِش وأعمال الطويلة. (الحجري: مجموع بلدان اليمن، مج1، ج2، ص351).

(50) الحيْمة: ناحية مشهورة من صنعاء على بعد نحو 60 كم وتنقسم إلى الحيمة الداخلية والحيمة الخارجية، وهما من مديريات محافظة صنعاء (الويسي، حسين بن عبدالله: اليمن الكبرى، كتاب جغرافي جيولوجي تاريخي، ط2، مكتبة الإرشاد، صنعاء، 1991م، ج1، ص96-97.

(51) عمران: مدينة مشهورة في أعلى قاع البون، تبعد عن صنعاء بنحو 50 كيلومتر شمالاً. (الحجري: مجموع بلدان اليمن، مج2، ج3، ص611).

لبلاده العليا ونحن نفتقر فيها إلى الإعانة منكم بما أمكن من الرجال والعدة والمال"[52]، كما أهاب بالمماليك إلى المبادرة لنصرة الدين والمدافعين عنه؛ لأن السلطان عامر قتل الكثير من أئمة وعلماء المذهب الزيدي، وأنه يجب التعاون مع اليمنيين لاستئصال "جميع بلاده من أدناها إلى أقصاها"[53].

وعندما وصلت رسالة الإمام شرف الدين إلى الكردي عرضها على أتباعه ومستشاريه، أشار عليه أحدهم بإبقاء رسول الإمام حتى يكتب للسلطان عامر يطلب منه المساعدة في مواجهة البرتغاليين، غير أن السلطان عامر رفض التعاون معهم، كما سبق أن رأينا.

ما يهمنا في هذا المحور هو دور الإمام شرف الدين فهو حتى هذا التاريخ 921هـ/1515م لم يكن له دور بارز بعد، وكل ما كان يقوم به هو التوجه إلى بعض المناطق القريبة منه ومراسلته المماليك لتحريضهم ضد السلطان عامر، وبعد مغادرة حسين الكردي في اليمن عام 922هـ/1516م وتعيين برسباي قائداً للمماليك في اليمن كتب إليه الإمام رسالة يحثه فيها على إتمام ما بدأه الكردي من قتال الطاهريين، وهي من الرسائل الطويلة للإمام امتدح فيها الأمير برسباي، ثم شرح الإمام جهوده ومحاولاته لدخول بعض المناطق الطاهرية، وحثه على "نشر العدل والقسط على الرعية، والأخذ على أيدي العساكر والأجناد من الظلم للبرية"[54]، وأشار إلى ما ارتكبه السلطان عامر بن عبدالوهاب من مظالم، وذكر بأنه متوقف عن أي تحرك حتى يأتي الجواب من برسباي، ويحذره بأن اليمن أهلها قبائل "لا نأخذهم إلا باللطف، ولا نستطيع إمضاء أوامر الله عليهم بالشدة والعنف"[55]، وطلب من برسباي الدعم المادي لما قد لحقهم من قلة ذات اليد بسبب الدولة الطاهرية، وأنه لن يتمكن من الوقوف بجانب المماليك والنهضة معهم ضد الطاهريين إلا بدعمهم وإعانتهم[56].

غير أن علاقة الود بين الإمام شرف الدين والمماليك لم تستمر طويلاً، فبعد مقتل السلطان عامر بن عبدالوهاب ودخول المماليك صَنْعَاء- كما أشرنا سابقاً- انتقل الإمام شرف الدين من الظفير بحجة إلى حصن ثلا [57] الذي كان تابعاً للدولة الطاهرية، وكان سبب انتقاله إلى هناك هو أن الليث الدودحي حاكم ثلا من الطاهريين كان قد راسله ليأتي لاستلام الحصن [58]، وكان ذلك بداية ارتفاع شأن الإمام شرف الدين، وذلك لأهمية هذه المدينة التي تمتاز بمناعة حصنها وقربها من صَنْعَاء.

وكان دخول الإمام شرف الدين في حروب مع المماليك أمراً متوقعاً، فعلى الرغم من تأييده للمماليك في حروبهم مع السلطان عامر وتحالفه معهم، فإن الهدف هو تحقيق أغراضه التوسعية؛ لذلك رأى أن توسع المماليك واستيلائهم على صَنْعَاء أمر يتعارض مع تحقيق طموحاته[59]؛ لذا كان أول ما قام به الإمام بعد انتقاله إلى ثلا هو إرسال الرسائل إلى أهل صَنْعَاء وعلمائها، ذاكراً فيها أنه لم ينتقل إلى ثلا إلا من أجل نصرة الدين، عندما علم بسوء سيرة المماليك في كل

[52] رسائل الإمام شرف الدين يحيى بن شمس الدين، مخطوط محفوظ بدار المخطوطات، المكتبة الغربية، صنعاء، رقم 570، ق76-ب-77أ.
[53] رسائل الإمام شرف الدين، مخطوط، ق77أ.
[54] رسائل الإمام شرف الدين، مخطوط، ق81ب.
[55] رسائل الإمام شرف الدين، مخطوط، ق82أ.
[56] نص الرسالة كاملة في رسائل الإمام شرف الدين، مخطوط، ق80ب-82أ.
[57] ثلا: مدينة وحصن شمال غرب صنعاء بمسافة 45كم، مدينة مسوّرة بسور محكم البناء، ويحتضن المدينة حصنها الشاهق التاريخي. (المقحفي: معجم البلدان، ج1، ص258).
[58] ابن المفضل: السلوك، ص81.
[59] سالم: الفتح العثماني، ص110.

مدينة أو قرية يدخلونها[60]، فقد رأى أن الجو المشحون بالتذمر من المماليك بسبب ما كانوا يسلبون وينهبون وسوء سلوك[61] هو خير مناخ لإخراجهم من صَنْعَاء وغيرها، فانقلب عليهم" ناقداً ومفسقاً، ولمساوئهم كاشفاً، وأعلن الحرب عليهم فالتفت القبائل الشمالية حوله التفاف حب واهتمام، لما كان من شخصية قوية وقيادة حكيمة، إلى معرفة جعلته في صف المجتهدين المؤلفين"[62].

أما المماليك، فعندما علموا بوصول الإمام شرف الدين إلى ثِلَا تأكد لهم بأنه سيحاربهم ويوسع مناطق نفوذه، لذا اتجهوا إلى ثِلَا وأرسلوا إلى الإمام رسولاً يعرض عليه عقد صلح بين الطرفين وهو أن يبقى الإمام في ثِلَا وهم في صَنْعَاء، وكاد يوافقهم على ذلك، فأشار عليه الليث الدودحي بعدم الثقة بهم، فوافقه الإمام، وكلفه بالخروج إليهم، فأخبرهم برفض الإمام لعقد الصلح[63]، من هنا بدأ الصدام بين المماليك والإمام شرف الدين، وحاصروا مدينة ثِلَا، وبينما كانوا محاصرين للمدينة وصلت الأخبار بدخول السلطان العثماني سليم الأول (1512-1520م) مصر، وانتهاء دولة المماليك فيها[64]، فاضطرب أمرهم وانسحبوا نحو صَنْعَاء بعد أن طلبوا الصلح من الإمام في جمادي الأولى 923هـ/ يونيو1517م.

ومن البديهي أن المماليك قد انتابهم الخوف بعد سقوط دولتهم في مصر، وأن هذا سيضعف من مكانتهم في اليمن، ويشجع اليمنيين على محاربتهم وإخراجهم، لذا بادر الإسكندر المخضرم إلى دعوة الناس للاجتماع في الجامع الكبير في صَنْعَاء وأعلن ولاءه للدولة الجديدة وللسلطان سليم[65]، ولا شك أنها خطوة ذكية من الإسكندر، فقد ربط وجودهم في اليمن بالدولة العثمانية، خاصة وأن السلطان سليم الأول قد اعترف بالأمر الواقع في اليمن وأرسل بتثبيت إسكندر في الحكم في اليمن، وأمره بإقامة الخطبة وضرب السكة باسم السلطان، فامتثل إسكندر لهذه الأوامر مجبراً[66].

غادر إسكندر صَنْعَاء بعد أن ترك بها حامية متجها إلى زَبِيْد، فتصدى له ومن معه في الطريق بعض القبائل اليمنية، وحدثت بينهم معركة هُزم فيها المماليك، وقُتل كثير منهم، كما نهبت القبائل كل ما استولى عليه المماليك من الذخائر والخيل والجمال، وتمكّن إسكندر من الوصول إلى زَبِيْد في 29جمادى الآخرة 923هـ/19يوليو1517م وهو منهك القوى[67].

أما المماليك الذين كانوا في صَنْعَاء فقد حاولوا أن يستعيدوا هيبتهم عن طريق التوسع في المناطق القريبة من صَنْعَاء، متحالفين مع بعض الأشراف، لكنهم هُزموا، وقُتل عدد منهم، مما شجع أهالي صَنْعَاء على مهاجمتهم، فانقضوا عليهم ليلاً وهم نائمون، وفتكوا بهم، وبقيت جماعة منهم لجأت إلى إحدى القصور وحوصرت هناك، وكان الإمام شرف الدين قد كاتب أهالي صَنْعَاء يحثهم على محاربتهم ويعدهم بالمساعدة، لذا تواصلوا مع الإمام شرف الدين للقدوم

(60) ابن المفضل: السلوك، ص81.
(61) العمري: المؤرخون اليمنيون، ص8.
(62) الشماحي: اليمن الإنسان والحضارة، ص159-160.
(63) الكبسي، محمد بن إسماعيل: اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية، (د. م)، (د.ت)، ج1، ص139-140.
(64) ابن القاسم، يحيى بن الحسين: غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق: سعيد عاشور، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1968م، ج2، ص654-655.
(65) الواسعي: فرجة الهموم، ص197؛ العمري: المؤرخون اليمنيون، ص8.
(66) سالم: الفتح العثماني، ص117.
(67) ابن الديبع: الفضل للمزيد، ص371.

إلى صَنْعَاء لاستلامها[68]، ولابد أنه كان يتابع ما يجرى في صَنْعَاء، وينتظر تلك اللحظة، فتوجه إليها، وعند وصوله إلى عصر خرج مجموعة منهم لاستقباله وبايعوه على الطاعة والنصرة، ودخلها في 8 شوال 923هـ/ 24 أكتوبر 1517م[69].

أما المماليك المحاصرين فقد استنجدوا بالأشراف آل المنصور، لكنهم لم يتمكنوا من عمل شيء، عندئذ حاول الأشراف استعطاف الإمام وإقناعه بأن يترك المماليك يغادروا صَنْعَاء، فوافق على خروجهم، وطلب المماليك منه أن يرافقهم في أثناء خروجهم من صَنْعَاء أحد أتباعه، فأرسل معهم ابنه المطهر [70]، وهذا دليل على خوفهم من اليمنيين نتيجة ما ارتكبوه من جرائم سببت تذمرهم واستياءهم من المماليك، وكان خروجهم من صَنْعَاء في 25 شوال 923هـ/10 نوفمبر 1517م، واتجه بعضهم إلى عمران التي كانت تحت سيطرة أشراف الجَوْف [71]، في حين انتقل بعض منهم إلى زَبِيْد، التي كانت تحت سيطرتهم.

وبذلك لم يعد للمماليك نفوذ إلا في تهامة، فعلى الرغم من إعلان تبعيتهم وولاءهم للدولة العثمانية، فإنه لم يعد بمقدورهم أن يؤدّوا دوراً مؤثراً في الأحداث اليمنية، كما أن هناك عاملاً آخر أدى إلى إضعاف موقفهم في اليمن وهو الصراعات التي حدثت بين صفوفهم أدت إلى تآمر بعضهم على البعض الآخر وسقط بعض قادتهم قتلى بسبب ذلك [72].

وقد حاول الإمام شرف الدين أن يمد نفوذه إلى زَبِيْد، المركز الرئيس للمماليك، فأرسل في 943هـ/1537م ابنيه المطهر وشمس الدين في عدد كبير من الجنود للإستيلاء عليها، وكان يحكمها الناخوذة أحمد، إلا أنهما فشلا في ذلك، ويورد بعض المؤرخين سبب الفشل أن المماليك قد حولوا المياه بوادي زَبِيْد، وأغرقوا الأراضي المحيطة بزَبِيْد، وأصبحت منطقة صعبة العبور للخيل والمشاة، وهُزم المطهر وجنوده وقتل الكثير منهم، وعادوا دون تحقيق شيء يذكر [73].

واستمر وضع المماليك في زَبِيْد وبعض المناطق التّهَامِيّة الأخرى كما هو حتى قدوم الحملة العسكرية العثمانية بقيادة سليمان باشا الخادم الذي تمكّن من القضاء على سلطتهم نهائياً فيما سيأتي ذكره.

المحور الثالث: علاقة الإمام المتوكل على الله شرف الدين بالأشراف والأئمة والإسماعيليين:

لقد كان الأشراف والأئمة القوة الثانية التي أصطدم بها الإمام شرف الدين، وسبق أن رأينا ما قام به بعض الأشراف من دور في إخراج المماليك الذين كانوا محاصرين في أحد القصور بصَنْعَاء.

كان نفوذ الأشراف يتركز في المناطق الشمالية، وقد وصل ذلك النفوذ إلى عمران، التي كانت من مراكزهم الرئيسة، ومن المرجح أن انفراد الإمام شرف الدين بالاستيلاء على صَنْعَاء كان من أهم الأسباب في تصادمه مع أشراف الجَوْف بزعامة الشريف محمد بن الشويع[74]؛ إذ كان الإمام شرف الدين قد اتفق مع الأشراف على أن يتعاونوا معاً في الهجوم على المماليك في صَنْعَاء والاستيلاء عليها، على أن يقتسموا الغنائم فيما بينهم، غير أن الإمام تخلّى عن

[68] ابن المفضل: السلوك، ص84؛ الواسعي: فرجة الهموم، ص194-197.
[69] ابن لطف الله: روح الروح، ج1، ص30-31.
[70] ابن المفضل: السلوك، ص85-90.
[71] هم أسرة من ذرية الإمام المنصور عبدالله بن حمزة (ت614هـ - م) ومنهم آل الشويع وآل الضمين، والحميضة، وفارع. (ابن المفضل: السلوك، هامش ص121).
[72] للمزيد انظر: ابن داعر، عبدالله بن صلاح الدين: الفتوحات المرادية في الجهات اليمانية، مخطوط محفوظ في مكتبة جامعة تورنتو، كندا، رقم 247، مج1، ق167أ-167ب؛ الشماحي: اليمن الإنسان والحضارة، ص151-153.
[73] ابن داعر: الفتوحات المرادية، مج1، ق167ب؛ ابن لطف الله: روح الروح، ج1، ص56-57.
[74] سالم: الفتح العثماني، ص133.

اتفاقه معهم، وقال للشويع: "الأمر مشروط باجتماعنا على حرب الجراكسة وأما الآن فقد أمكن الله منهم من غير حضوركم"[75]، وكان الخلاف قد تفاقم بين الإمام شرف الدين والأشراف بعد أن فشلوا في الوصول إلى اتفاق معه في أثناء محاصرة المماليك في صَنْعَاء، وبعد إخراجهم من صَنْعَاء لجأ بعض منهم إلى الأشراف في عمران- وقد سبق ذكره- حينئذٍ تألف حلف بين المماليك وأشراف الجَوْف وإمام صَعْدَة الحسن بن المؤيد، الذي كان قد أعلن إمامته منذ أيام السلطان عامر بن عبدالوهاب، وقرر الحلفاء العمل ضد الإمام شرف الدين ومحاربته[76]، وكان هذا التحالف الذي نشأ في الشمال أخطر قوة بالنسبة للإمام شرف الدين، حيث كانت المنطقة الشمالية في عهد السلطان عامر بن عبدالوهاب قد دخلت ضمن نفوذه، وأعلن الكثير من الأشراف الولاء له، وانزوى البعض في مناطق محصورة بعيدة عن نفوذه، غير أنه بعد مقتل السلطان عامر تطلع الأئمة والأشراف أن يكون لهم دور بارز في الحياة السياسية، وعندما تفوق الإمام شرف الدين ودخل صَنْعَاء بدأوا في تكوين هذا الحلف لمحاربته والاستيلاء على مناطق نفوذه، ففي عام 924هـ/1518م تحرك هذا الحلف من عمران وقاموا بالهجوم على حصن ثِلَا، وكان فيها حاكمها عبدالله بن يحيى بن صلاح، فاستنجد بالإمام شرف الدين، عند ذلك أرسل الإمام عدداً من الجنود وأنضم إليهم أهالي مدينة ثِلَا وهزموهم دون أن يحققوا شيئاً يُذكر[77].

ولما رأى الأشراف عدم قدرتهم على مواجهة الإمام عقدوا معه صلحاً في 925هـ/1519م[78]، إلا أن الصلح لم يستمر طويلاً، إذ نقضه الأشراف في 927هـ/1521م، فخرج الإمام وابنه المطهر إليهم في عمران بجيش، ودارت معركة بين الطرفين هُزم فيها الأشراف وقُتل الكثير منهم، ثم حاصرهم الإمام وابنه المطهر، فلما ضاق عليهم الخناق خرجوا إليه ومعهم المماليك لطلب الصلح قابلين بما سيحكم عليهم، فتسلم الإمام منهم الأسلحة والخيل، وسجن بعضهم في حصن ثِلَا، وأما الشويع فقد تمكن من الهروب بخيله، ثم عاد بعد أيام وطلب عقد هدنة أخرى مع الإمام، فوافق على ذلك[79].

وفي عام 925هـ/1519م تمكن الإمام شرف الدين من بسط نفوذه على بعض مناطق الأئمة آل المؤيد، فبادروا إلى طلب الصلح، ووافق على ذلك [80].

وفي عام 929هـ/1523م توجه المطهر إلى قاهرة عاثين[81]، وكانت تحت سيطرة الأشراف من آل المهدي، فاستولى عليها، وفي نفس العام توجه الإمام شرف الدين إلى البون[82] في عمران لعقد صلح بينه وبين الأشراف، وحُددت مدة الصلح بعشر سنوات، وترك لهم الإمام البون وجبل عيال يزيد[83]، كما أطلق سجناءهم[84].

ولم يشتد الصراع بين الإمام شرف الدين والأشراف في صَعْدَة والجَوْف إلا في عام 937هـ/1531م عندما قرر هؤلاء مبايعة عزالدين بن المؤيد بالإمامة في صَعْدَة بعد وفاة أبيه، ونشر دعوته في الجهات

(75) ابن القاسم: غاية الأماني، ج2، ص657.
(76) سالم: الفتح العثماني، ص132.
(77) ابن لطف الله: روح الروح، ج1، ص33.
(78) ابن لطف الله: روح الروح، ج1، ص35.
(79) الكبسي: اللطائف السنية، ج1، ص146.
(80) ابن المفضل: السلوك، ص100-101.

(81) عاثِيْن: قرية من مخلاف ابن حاتم وأعمال آنس. (الحجري: مجموع بلدان اليمن، مج2، ج3، ص571).
(82) البون: قاع زراعي فسيح يمتد من مدينة عمران إلى شوابة، مساحته لا تقل عن 60 كم^2. (المقحفي: معجم البلدان، مج1، ص286).
(83) جبل عيال يزيد: شمال مدينة عمران وتشكل إحدى مديريات محافظة عمران. (ابن المفضل: السلوك، هامش ص91).
(84) ابن القاسم: غاية الأماني، ج2، ص664.

الشمالية [85]. وممّا زاد من إصرار الإمام شرف الدين على محاربة الأشراف أنه في عام 940هـ/1533م ثار أشراف الجَوْف على الإمام، واتجه بعضهم إلى مَأْرِب [86]، التي كانت تحت سيطرة الإمام، فخرج وابنه المطهر لمواجهتهم، ودارت معركة انتهت بهزيمة الأشراف، وتبعهم المطهر حتى دخل الزاهر [87][88]، وممّا لا شك فيه أن تلك المعركة التي هُزم فيها الأشراف قد مهدت للإمام شرف الدين الطريق إلى أقصى الشمال؛ إذ توجّه هو وابنه المطهر إلى صَعْدَة ، فدخلوها في 22صفر 940هـ/12سبتمبر 1533م، وكان الأشراف قد خرجوا منها قبل دخول الإمام إليها، أما آل المؤيد فقد وصل الكثير منهم إلى الإمام لمبايعته. وبعد خروج الأشراف من صَعْدَة أخذوا يجمعون القبائل حتى وصل عددهم خمسة عشر ألف وثلاثمائة لمحاربة الإمام، غير أنهم هُزموا وقتل كثير منهم [89]. وبعد استيلاء الإمام على صَعْدَة، اتجه إلى برط [90]، ودخلت في طاعته في941هـ/1534م [91]، ثم تقدم إلى نجران [92] ومعه المطهر، واستولى عليها، وكانت نجران منطقة الأشراف آل حمزة وهجرتهم، فخرجوا منها وطلبوا الأمان من الإمام، فأمنهم لمدة عام حتى يتم استعداد من يرغب منهم في الرحيل.

أما أشراف الجَوْف فقد وصل منهم إلى الإمام ثلاثون يعلنون الولاء والطاعة [93]، وبالنسبة للإمام عزالدين المؤيد فقد أقام في فللّه بالقرب من صَعْدَة، وانصرف إلى العلم والتدريس حتى توفي [94].

وهكذا نجد أنه من بداية الحرب بين الإمام شرف الدين والحلف الذي نشأ في الشمال استمر ضغط الإمام عليه، في حين استمر الحلف في التراجع نحو الشمال حتى سقطت صَعْدَة كما رأينا، وأصبحت الطريق ممهدة أمام جيوش الإمام للاستيلاء على أقصى المناطق الشمالية حتى وصل إلى نجران، وطوال هذه المعارك كانت باستمرار ترجح كفة الإمام شرف الدين، حتى تمكن في النهاية من بسط سيطرته على المنطقة الشمالية كاملة.

وعلى ما يبدو أن الأمر بالنسبة للأشراف كان استراحة محارب، وأنهم منتظرون الفرصة المناسبة للنيل من الإمام وتحقيق مصالحهم الخاصة، فقد تراخى أشراف الجَوْف في مساعدة المطهر في أثناء هجوم الأتراك العثمانيين على صَنْعَاء، حتى سقطت في أيديهم، وبعدها جاهروا بعدائهم الصريح وسعوا إلى الاتصال بالعثمانيين للتعاون معهم في القضاء على الإمام شرف الدين وأبنائه، فاتفقوا مع الوالي العثماني أزدمر باشا على إعاقة تقدم عزالدين بن الإمام من صَعْدَة إذا ما تقدم إلى صَنْعَاء لمساعدة أخيه المطهر، وانسحب من كان منهم في جيش عزالدين عندما استعدوا للهجوم على العثمانيين في صَنْعَاء[95].

---

[85] ابن القاسم: غاية الأماني، ج2، ص674-675.
[86] مأرب: مدينة أثرية، تقع إلى الشرق من صرواح، وشرقي صنعاء وهي الآن مركز المحافظة. (الحجري: مجموع بلدان اليمن، مج2، ج4، ص683).
[87] الزاهر: بلد من ناحية الجوف. (الحجري: مجموع بلدان اليمن، مج1، ج2، ص381).
[88] ابن القاسم: غاية الأماني، ج2، ص674-675.
[89] ابن القاسم: غاية الأماني، ج2، ص675-677.
[90] برط: جبل مشهور في الشمال الشرقي من صنعاء، وهو من بلاد همدان، ثم من بكيل. (الحجري: مجموع بلدان اليمن، مج1، ج1، ص107).
[91] ابن القاسم: غاية الأماني، ج2، ص676-677.
[92] نجران: تقع في الجهة الشرقية الشمالية من صعدة على بعد مائة كليومتر تقريباً، وهي من بلاد يام. (الويسي: اليمن الكبرى، ج1، ص133).
[93] ابن لطف الله: روح الروح، ج1، ص60.
[94] ابن القاسم: غاية الأماني، ج2، ص677.
[95] سالم: الفتح، ص193.

وفي أثناء حروب الإمام مع الأشراف كان يضطر إلى إرسال جيوشه إلى بعض القوى القبلية التي أعلنت مبايعتها له، بسبب التمردات أو الاضطرابات التي كانت تقوم بها هذه القوى، وقد تمكّن من إخمادها على يد ابنه المطهر، الذي كان اليد الضاربة للإمام؛ فتح المناطق والحصون التي لم تدخل في طاعة الإمام بعد [96].

أما علاقة الإمام شرف الدين بالأئمة، فقد سبق أن رأينا وجود أكثر من إمام، حاول بعضهم محاربة الإمام شرف الدين، مثل: أئمة صَعْدَة، وآخرون لم يمارسوا ضده عملاً عسكرياً بارزاً. وهذه الظاهرة تتكرر باستمرار، والإمام القوي يحاول أن يقضي على أي إمام آخر ينافسه، وهذا ما حدث في هذه المدة؛ إذ أخضع الإمام شرف الدين الأئمة في صَعْدَة وأضعفهم كما رأينا سابقاً، كذلك عندما أعلن أحمد السيد الهادي إمامته في الحَيْمَة عام 925هـ/1519م أمر الإمام بسجنه بعد إحضاره إلى صَنْعَاء [97].

وعلى الرغم من أن المذهب الزيدي يبيح ظهور أكثر من إمام في وقت واحد على ألا يكون في منطقة واحدة، وأن تتوفر فيه شروط الإمامة، غير أن الإمامة استغلت بطريقة غير صحيحة لتحقيق مصالح وأغراض سياسية، لذا وجدنا الإمام شرف الدين عند ظهور إمام آخر في أي منطقة، حتى وإن توفرت فيه شروط الإمامة عمل على إضعافه وإخضاعه، كما سبق معنا.

وإذا تطرقنا للإسماعيليين وعلاقة الإمام شرف الدين بهم، فقد كانوا على عداء معه، وقد عمل على محاربتهم والاستيلاء على حصونهم وقلاعهم، فدخل بعضهم في طاعته وتفرق الباقي في جهات اليمن المختلفة، وإذا تطرقنا لبعض الأمثلة سنجد أنه في عام 931هـ/1525م خرج الإمام وابنه المطهر لحصار قلعة الإسماعيلية المعروفة بطيبة [98] وحاصروها، وحدثت مناوشات بين الطرفين، ثم طلبوا الصلح والدخول في طاعة الإمام، ووافقوا على تسليم القلعة [99]. وفي عام 944هـ/1537م توجه شمس الدين بن الإمام لفتح بلاد حَرَاز [100] التي كانت مقر الإسماعيلية، وكانت محصنة، إلا أنه تمكن من دخول معاقلهم، وعندما واجهوه قتل عدداً منهم، وكان من بين القتلى عدد من رؤسائهم [101]، وفي صَعْفَان [102] تمكن شمس الدين من فتح جهاته وحصونه بعد فتح حَرَاز [103].

وقد انتهت حروب الإمام شرف الدين مع الإسماعيلية في 946هـ/1539م عندما استسلموا في مسار [104] بسبب الحصار الشديد عليهم، واشترط عليهم الإمام الخروج من مناطق نفوذه إلى تَهَامَة، وتسلَّم شمس الدين مسار، كما تسلم منهم كثيراً من الحصون والمناطق [105].

تلك كانت علاقة الإمام شرف الدين بالأئمة والأشراف في الشمال، كذلك الإسماعيليين وبعض القوى القبلية الأخرى، فكما رأينا أخضع كل منافس له في الإمامة،

[96] ابن لطف الله: روح الروح، ج1، ص39-40.
[97] ابن لطف الله: روح الروح، ج1، ص35.
[98] طيبة: قرية مطلة على قرية القابل من الغرب، وهي منطقة حصينة بها قلاع وحصون اتخذها الباطنية مركز لهم. (المقحفي: معجم البلدان، ج1، ص968).
[99] ابن لطف الله: روح الروح، ج1، ص39.
[100] حراز: تقع جنوب غرب صنعاء، وهو صقع واسع، مركزه مناخة رأس جبل حراز. (الويسي: اليمن الكبرى، ج1، ص77).
[101] ابن المفضل: السلوك، ص211-212.
[102] صعفان: ناحية معروفة من بلاد حراز، مركزها مَتْوَح. (الحجري: مجموع بلدان اليمن، مج1، ج2، ص254؛ مج2، ج3، ص480.
[103] ابن المفضل: السلوك، ص216.
[104] مَسَار: مخلاف من بلاد حراز إليه يُنسب حصن مسار، جبل عالٍ من جبال مديرية مناخة في حراز، وهو من أعلى جبال حراز. (الحجري: مجموع بلدان اليمن، مج1، ج2، ص253؛ المقحفي: معجم البلدان، ج2، ص1509).
[105] ابن المفضل: السلوك، ص236-238.

وقضى على قوة الأشراف، وأخضع الإسماعيليين وبعض القوى القبلية التي حاولت الخروج عن طاعته، غير أنه خلال حروبه في المناطق الشمالية كان يجابه قوة أخرى في المناطق الجنوبية، تلك هي قوة الطاهريين.

المحور الرابع: علاقة الإمام المتوكل على الله شرف الدين بالطاهريين:

لقد حاول الإمام شرف الدين التواصل مع الطاهريين منذ أيام السلطان عامر بن عبدالوهاب، عندما كان الإمام في الظفير بحَجّة، وقبل أن يكون له دور سياسي بارز، في حين أن السلطان عامر كان قد بسط نفوذه على كثير من مناطق اليمن شمالاً وجنوباً بما فيها صَنْعَاء، فها هو الإمام يبعث برسالة إلى السلطان عامر عام 914هـ/1508م احتوت على كثير من النصائح والعتاب للسلطان عامر وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فوضح فيها أنه لا غرض له إلا النصيحة، وأن لا يغتر بنعيم الدنيا، ويجب عليه اتباع ما وافق الشرع والابتعاد عما سواه، ثم عاتبه أنه عندما ملك صَنْعَاء وما حولها عامل أهلها معاملة سيئة، وشردهم في كثير من المناطق[106].

وممّا يدلّ على أن الإمام لم يكن له دور سياسي بارز حتى الآن هو محاولته في هذه الرسالة إقناع السلطان عامر بجمع شمل اليمنيين، "واعلم هداك الله أنه إذا حصل جمع شمل أمة محمد علي يديك كنت أسعد الملوك والسلاطين، وأرفع مشائخ أمة محمد الأولين والآخرين"[107].

كما أن الإمام في هذه الرسالة يحث السلطان عامر على معاملة جميع اليمنيين معاملة واحدة، دون تفريق بين زيدي وشافعي وغيرهم، فيقول: "فلا تظن أن بين المذهب الزيدي وبين مذاهب الفقهاء والأقدمين عداوة، وكل منهم يصوّب الآخر في اجتهاده، ولا يخطّئه في مذهبه واعتقاده، وإنما فرق علماء السوء المتأخرون"[108].

فلما وصلت الرسالة إلى السلطان عامر "لم يرفع لها رأسه، واستمر على طغيانه، واجتراء رذيل عدوانه"[109].

ولم تخبرنا المصادر التي بين أيدينا عن مراسلات أخرى أو تواصل بين الطرفين إلى أن قُتل السلطان عامر بن عبدالوهاب؛ إذ اختار الطاهريون ابنه أحمد سلطاناً عليهم، واستطاع استعادة المقرانة من المماليك، إلا أنه سرعان ما توفي ليتولى بعده عامر بن عبدالملك، بيد أنه لم يستقر له الأمر، فقد نازعه على السلطة أحد أقاربه وهو أحمد بن محمد الذي استقل برداع، ودخل المتنافسان في صراع مسلح كان من نتائجه أن تحالف أحمد بن محمد مع الإمام شرف الدين ضد عامر بن عبدالملك الذي توفي عام 926هـ/1520م، ثم ظهر لأحمد بن محمد منافس آخر هو عبدالملك بن محمد، الذي أخذ يتحرك بتشجيع من الأمير مرجان حاكم عدن الطاهري، ثم ما لبث أن دب الخلاف بين الأمير مرجان وعبدالملك. ولم يتوقف الصراع بينهما إلا عندما توفي الأمير مرجان عام 928هـ/1521م.

ولا شك أن هذه الصراعات جعلتهم غير قادرين على استعادة مكانتهم السابقة [110]، وأصبح موقفهم ضعيفاً، ورغم ذلك فقد ظل الطاهريون يدافعون عن مناطقهم،

(106) رسائل الإمام شرف الدين، ق120أ- 126أ.
(107) رسائل الإمام شرف الدين، ق125ب.
(108) رسائل الإمام شرف الدين، ق126أ.
(109) ابن المفضل: السلوك، ص69.
(110) سالم: الفتح العثماني، ص137-138.

ومحافظة ما يمكن المحافظة عليه حتى حملة سليمان باشا الخادم عام 945هـ/1538م.

ولم تتضح علاقة الإمام شرف الدين بالطاهريين إلا بعد مقتل السلطان عامر بن عبدالوهاب، وإن كان هناك محاولات من الإمام لتحريض المماليك ضد السلطان عامر كما مر بنا. وبعد مقتل السلطان عامر ودخول المماليك صَنْعَاء وجد الإمام أن الفرصة قد حانت ليتوسع في مناطق نفوذ الطاهريين، وقد ساعدته الظروف عندما اتصل به حاكم ثِلَا الطاهري، فبعد وصوله ثِلَا سقطت الحصون الطاهرية في الشمال بسهولة، وسيطر عليها دون مقاومة، لعل أهمها كوكبان [111] القريبة من ثِلَا؛ إذ هرب منها الوالي الطاهري بعد أن علم بزحف الإمام إليها [112]. وفي عام 923هـ/ 1517م بايع أهالي مدينة ذمار الإمام شرف الدين ودخولهم تحت طاعته [113]، وفي عام 926هـ/1520م سقط حصن ذي مرمر التابع للطاهريين في يد الإمام شرف الدين [114].

أما بداية الصدام الحقيقي الذي كان على الإمام شرف الدين أن يخوضه ضد الطاهريين فهو في مناطقهم الجنوبية، وقد ساعده في ذلك الصراعات الداخلية التي حدثت بين الطاهريين أنفسهم، أو بينهم وبين المماليك. لقد حاول الطاهريون استرجاع بعض مناطق نفوذهم، وبدأت تلك المحاولات عام 924هـ/1518م عندما اتجه عامر بن عبدالملك الطاهري إلى مدينة ذمار، ودخلها عنوة بعد أن كان بها من أتباع الإمام وجنوده، وأقر عامر على أهلها مبلغاً من المال يسلموها لأحد أتباعه ثم أتجه إلى رداع[115]، وكان بها ابن عمه محمد بن أحمد الطاهري حاكماً عليها من الإمام شرف الدين، ولمّا علم الإمام أن عامر بن عبدالملك محاصراً لحليفه في حصن رداع جهز ابنه المطهر، الذي اتّجه أولاً إلى ذمار بكثير من الجنود وأقر أمورها، ثم اتّجه إلى رداع، ولمّا بلغ عامر بن عبدالملك توجّه المطهر إلى رداع طلب الصلح من ابن عمه محمد بن أحمد وغادر رداع قبل وصول المطهر إليها.

وعندما دخل المطهر رَدَاع أقرّ أمورها وتركها بيد حليفهم محمد بن أحمد وعاد إلى صَنْعَاء [116]، إلا أن محمد بن أحمد هذا نقض العهد وغزا ذمار، ويورد بعض المؤرخين سبب توجهه إلى ذمار أن جماعة من أهلها كاتبوه وحسنوا له الغدر، فظن أن الإمام منشغلاً، واتّجه إلى ذمار في كثير من قادته وجنوده، بيد أنه عندما عاد الإمام إلى صَنْعَاء أرسل الجيوش إلى ذمار لمحاربته فهرب منها [117].

وعلى ما يبدو أن الإمام شرف الدين وابنه المطهر قد وجدا الفرصة المناسبة للاستيلاء على باقي مناطق الطاهريين في الجنوب، فعندما قرب المطهر من البلاد الطاهرية عام 934هـ/1527م كاتبه المماليك الذين كانوا في المقرانة بأنهم يريدون الدخول في طاعة الإمام[118]، فأرسل المطهر بعض جنوده إليها لاستلامها، غير أنه سبقهم إليها أحد القادة الطاهريين في كثير من الجند، فقبض على اثنين من قادة المطهر وحبسهما، فلمّا علم المطهر توجه وسيطر على كثير من المناطق في طريقه حتى وصل إلى

(111) كَوْكَبَان: حصن مشهور مطل على مدينة شبام كوكبان، في الغرب الشمالي من صنعاء، على مسافة 36كم منها. (الموسوعة اليمنية، ج2، ص791-792؛ الاكوع: هجر العلم، ج4، ص1870).
(112) سالم: الفتح العثماني، ص138-139.
(113) ابن المفضل: السلوك، ص94-95.
(114) ابن لطف الله: روح الروح، ج1، ص36.
(115) رداع: مدينة مشهورة في الجنوب الشرقي من صنعاء، تسمى رداع العرش. (الحجري: مجموع بلدان اليمن، مج1، ج2، ص359).
(116) ابن القاسم: غاية الأماني، ج2، ص660.
(117) زبارة، محمد بن محمد: أئمة اليمن، مطبعة النصر الناصرية، تعز، 1952م، ج1، ص395.
(118) سالم: الفتح العثماني، ص139-140.

المقرانة، واستولى على كل ما فيها من ذخائر وسلاح[119]، ثم انتقل إلى القادر[120]، وكان أهلها قد فروا منها خوفاً من المطهر، فوجد فيها الكثير من الذخائر، بسبب أن الطاهريين كانوا قد نقلوا ذخائرهم إلى هذا الحصن عندما هاجمهم المماليك في أثناء حروبهم مع السلطان عامر، ثم تقدم المطهر إلى أهل عبدالله[121]، ووجد عندهم الكثير من الأموال والذخائر، بعد ذلك تقدم إلى جُبن[122] فاستولى عليها وجمع الكثير من الكتب التي كانت تضم كل العلوم، وكانت خاصة بالسلطان عامر بن عبدالوهاب، كان قد أخذها من غَمْدَان[123] وغيره عندما استولى على صَنْعَاء[124].

وكان الإمام شرف الدين قد أمدَّ المطهر بعدد كبير من الجنود بقيادة ابنه شمس الدين، فتوجه إلى رَدَاع وكان بها بقية الطاهريين وعدد من المماليك، ولمّا علموا أن لا طاقة لهم بمواجهة المطهر سلموا له رَدَاع، وعاد المطهر إلى صَنْعَاء محملاً بالغنائم الكثيرة والذخائر الثمينة في 934هـ/1528م [125].

لم يتمكن الطاهريون من استعادة أنفاسهم إلا في عام 940هـ/1534م عند أن كان الإمام في هذه المدة يخوض معاركه الأخيرة في المنطقة الشمالية، فاستغل الطاهريون انشغاله وحاولوا أن يتحركوا بتحريض من أحد الأشراف وهو يحيى السراجي، وفي عام 941هـ/1535م تحرك عامر بن داود الطاهري، وجمع عدداً من القبائل، وجعل قائدهم يحيى السراجي وعلي بن محمد البعداني لاستعادة ممتلكات الطاهريين، التي استولى عليها الإمام شرف الدين، ولما علم الإمام بذلك كتب إلى المطهر وكان في الشمال، فجمع عدداً كبيراً من جنوده واتجه إلى الجنوب، وكان السراجي قد وصل إلى دَمْت[126]، فاتّجه إليها المطهر وفاجئ الطاهريين بظهوره، وأربكهم فدارت معركة بين الطرفين بالقرب من دمت قُتل فيها السراجي وعدد كبير من جنوده[127].

ولما علم البعداني بقتل السراجي وكثير ممّن معه فرَّ من المقرانة؛ إذ كان قد دخلها على غفلة من أهلها واستولى عليها، فلحقه المطهر ودارت معركة بين الطرفين قُتل فيها البعداني واستولى المطهر على الكثير من الغنائم.

أما عامر بن داود فكان في قعطبة [128]، فلمّا علم بذلك فرَّ منها إلى عدن [129].

وواصل المطهر حروبه ضد الطاهريين فتوجه في 941هـ/1535م إلى تَعِز وحاصرها، وفي أثناء الحصار غدر جنود أحمد بن محمد الطاهري، وفتحوا حصن تَعِز للمطهر وجنوده، فاستولى على الحصن ومافيه من أموال وذخائر الطاهريين [130].

(119) ابن لطف الله: روح الروح، ج1، ص43.
(120) لم أجدها في المصادر المتوفرة لدي.
(121) أهل عبدالله: من قبائل الحبيشية وأعمال رداع. (الحجري: مجموع بلدان اليمن، مج2، ج3، ص573).
(122) جُبن: تقع في الجنوب الغربي من رداع. (الحجري: مجموع بلدان اليمن، مج1، ج1، ص178).
(123) غَمْدَان: نسبة إلى قصر قديم في مدينة صنعاء، مازالت أثاره باقية إلى اليوم، شرقي الجامع الكبير. (ابن المفضل: السلوك، هامش ص199).
(124) ابن المفضل: السلوك، ص148-149.
(125) ابن لطف الله: روح الروح، ج1، ص43-44.
(126) دَمْت: مركز ناحية تتبع رداع، وهي الآن من نواحي قضاء النادرة في محافظة إبّ، جنوب صنعاء، تعبد عن مركز اللواء 130 كيلومتر شمال شرق، بها حمام طبيعي مشهور. (الموسوعة اليمنية، ج1، ص443).
(127) ابن لطف الله: روح الروح، ج1، ص51-52؛ شرف الدين، أحمد حسين: اليمن عبر التاريخ من القرن الرابع عشر قبل الميلاد إلى القرن العشرين (دراسة جغرافية تاريخية سياسية شاملة)، ط2، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 1964م، ص245.
(128) قعطبة: مدينة مشهورة، جنوبي صنعاء. (الحجري: مجموع بلدان اليمن، مج2، ج4، ص656).
(129) الكبسي: اللطائف، ج1، ص159.
(130) ابن القاسم: غاية الأماني، ج2، ص679-680.

وبذلك سيطر الإمام شرف الدين – بفضل ابنه المطهر– على معظم الجهات الجنوبية، ولم يبقَ أمامه سوى عدن، وقد حاول المطهر أكثر من مرة الاستيلاء عليها، ففي عام 943هـ/1536م اتجه إلى لَحْج [131] في جيش كبير وحاصر عَدَن، فلم يتمكّن من دخولها، ثم أعاد الكرة في نفس العام، بيد أنه فشل أيضاً في الاستيلاء عليها، فتراجع عنها [132].

وفي عام 944هـ/1537م حاول عامر بن داود محاولته الأخيرة لمواجهة المطهر مستغلاً فرصة هزيمته في أثناء محاولته الاستيلاء على زَبِيْد، فاتجه إلى أم قريش، ولمّا علم المطهر تقدم إليه، فهرب عامر إلى غيل ورزان، وتبعه المطهر ودارت معركة بين الطرفين هُزم فيها عامر، وهرب ناجياً بنفسه إلى عدن [133]. وبعد هذه الهزيمة لم يبقَ بيد الطاهريين إلا عدن التي تمنعت على المطهر، واحتلها العثمانيون في العام التالي، كما سنرى.

وبذلك استطاع الإمام شرف الدين أن يصبح القوة الرئيسة في اليمن على حساب مراكز القوى الأخرى، إذ كان الطاهريون قد حُصروا في عدن، والأئمة والأشراف استسلموا بعد صراع طويل في المناطق الشمالية، والمماليك ما زالوا في تهامة يتصارعون، كل قائد يحاول أن ينفرد بالسلطة ويتآمر على الآخر، وأصبح الإمام شرف الدين صاحب الكلمة العليا في البلاد، وظل مسيطراً على أوضاع اليمن حتى قدوم حملة سليمان باشا الخادم وما تلاها من أحداث، وكان لذلك تأثير كبير في تغيير الأوضاع السياسية في اليمن.

المحور الخامس: علاقة الإمام المتوكل على الله شرف الدين بالعثمانيين:

لقد دخلت اليمن كباقي الأقطار العربية في ظل الدولة العثمانية، بعدما قرر العثمانيون في بداية القرن السادس عشر اتخاذها قاعدة حربية للدفاع عن البحر الأحمر [134]، ودخل المماليك الذين كانوا في اليمن تحت طاعة الدولة العثمانية، بيد أن الأوضاع في اليمن سارت بطريقة مختلفة عمّا كان يريده العثمانيون، فقد انحصر المماليك في تهامة، واتسمت أوضاعهم خلال هذه المدة بالصراع الدائم بين قادتهم– كما سبق ذكره– وعلى الرغم من أنهم لم يكونوا معزولين عن الدولة العثمانية، وكان بعض العثمانيين موجودين في اليمن، فإنهم لم يكونوا قد أحكموا قبضتهم بعد، ولم يكن هناك إلا ارتباطاً شكلياً بين الساحل اليمني والدولة العثمانية؛ إذ كان المماليك يتصرفون تصرّفاً مستقلاً.

وقد تمثلت أولى الجهود العسكرية العثمانية في البحر الأحمر بإرسال حملة إلى جدة في 926هـ/1519م بقيادة حسين الرومي، ثم كُلف بضمّ الساحل اليمني إليه في 927هـ/1520م وحكم زَبِيْد حتى 933هـ/1526م دون أن يتمكّن من توسيع نفوذ العثمانيين في اليمن [135]، ثم جاءت حملة أخرى بقيادة خير الدين حمزة وسلمان الريّس في 933هـ/1526م، لكنها لم تستطع توسيع نفوذ العثمانيين في اليمن أيضاً [136] لهذا رأى المؤرخون أن الوجود العثماني الحقيقي في اليمن لم يبدأ إلا في عام 945هـ/1538م في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني (1520-

(131) لَحْج: مدينة مشـــهورة على مقربة من عدن، تشـــمل قرى ومزارع. (الحجري: مجموع بلدان اليمن، مج2، ج4، ص677).

(132) العبدلي: أحمد فضل: هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، ط2، دار العودة، بيروت، 1980م، ص95.

(133) العبدلي: هدية الزمن، ص95-96.

(134) الشناوي، عبدالعزيز بن محمد: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1986م، ج1، ص21.

(135) سالم: الفتح العثماني، ص145-146.

(136) لمزيد من التفاصـــيل أنظر: ابن داعر: الفتوحات المرادية، مج1، ق167أ-167ب.

1566م)، فقد بلغت الدولة العثمانية في عهده أوجّ قوتها وازدهارها واتساعها براً وبحراً، وتمكنت من تثبيت الوجود العثماني في معظم البلاد العربية خلال القرن السادس عشر في مدة لا تتجاوز الأربعين عاماً[137].

لقد أرسل السلطان سليمان القانوني إلى اليمن حملة عسكرية كبيرة بقيادة سليمان باشا الخادم، فماذا حققت هذه الحملة من مكاسب في اليمن؟ وكيف كانت علاقة الإمام شرف الدين بهذه الحملة؟

أولاً: علاقة الإمام شرف الدين بحملة سليمان باشا الخادم والمكاسب التي حققتها في اليمن:

لقد أُعد لهذه الحملة طويلاً، ووصلت إلى كمران في 945هـ/1538م للسيطرة على السواحل اليمنية بعد فشلها في تحقيق أهدافها في المحيط الهندي أمام البرتغاليين. [138]

ويرى بعض المؤرخين بأنه عند وصول الحملة إلى كمران، راسل السلطان عامر بن داود الطاهر قائدها سليمان باشا الخادم، ليستعين به ضد الإمام شرف الدين [139]، في حين يرى البعض الآخر أن الإمام شرف الدين هو الذي راسل سليمان الخادم، ليستعين بحملته ضد السلطان عامر بن داود [140]، ورأي ثالث رأى أن كلاً منهما حاول أن يستعين بهذه الحملة على خصمه [141]، والسؤال الذي يطرح نفسه هو من الذي راسل الحملة؟

لو عدنا إلى الوراء قليلاً سنجد أن الإمام شرف الدين كان قد راسل المماليك عند وصولهم كمران، ليستعين بهم ضد السلطان عامر بن عبدالوهاب؛ لأن مراسلته لهم كان لها ما يبررها؛ إذ كان في موقف ضعيف، في حين السلطان عامر كان قد بسط نفوذه على معظم أجزاء اليمن – كما مر معنا– أما مراسلة الإمام شرف الدين لقائد الحملة العثمانية ليستعين بها ضد السلطان عامر بن داود فهذا أمر بعيد الاحتمال؛ لأن الإمام شرف الدين لم يكن بحاجة إلى مساعدة العثمانيين لمواجهة الطاهريين، فقد بسط نفوذه على معظم المناطق اليمنية، ولعل الأقرب إلى الصحة أن السلطان عامر بن داود هو الذي راسل الحملة ليستعين بها ضد الإمام شرف الدين الذي كان قد سيطر على مناطق نفوذهم وحصرهم في عدن، ولعل ما أورده ابن داعر يؤيد ما ذهبنا إليه؛ إذ ذكر أن عامر بن داود ابتهج بوصول سليمان باشا الخادم "لعله ينصره على الإمام شرف الدين وبنيه، إذ كان منهم على خوف وانزعاج، فخرج إليه مواجهاً له بالتسليم، مقابلاً له بالترحيب والتكريم"[142].

أما سليمان باشا الخادم فقد غدر بالسلطان عامر بن داود وأعدمه ومن معه في السفينة التي استقبله فيها، واستولى على عدن، ثم حصّنها وشحنها بالمدافع، وعيّن بهرام حاكماً عليها[143]، ثم اتّجه إلى المحيط الهندي لمواجهة البرتغاليين، بيد أن حملته عادت إلى السواحل اليمنية في مطلع العام التالي 946هـ/1539م، بعد أن فشلت في تحقيق أهدافها في

(137) الحُصري، ساطع: البلاد العربية والدولة العثمانية، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، 1965م، ص11؛ الجمل، سيار: العثمانيون وتكوين العرب الحديث، ط1، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1989م، ص38؛ مصطفى، أحمد عبدالرحيم: في أصول التاريخ العثماني، ط2، دار الشروق، بيروت، 1993م، ص100.

(138) شهاب، حسن صالح: عدن فرضة اليمن، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، (د.ت)، ص622-226.

(139) ابن المفضل: السلوك، ص230.

(140) الموزعي، شمس الدين عبدالصمد بن إسماعيل: دخول العثمانيين الأول إلى اليمن المسمى الإحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان، تحقيق: عبدالله الحبشي، دار التنوير، بيروت، 1986م، ص25-26.

(141) سالم: الفتح العثماني، ص160-161.

(142) ابن داعر: الفتوحات المرادية، مج1، ق167ب.

(143) بيات، فاضل: البلاد العربية في الوثائق العثمانية، النصف الأول من القرن 10هـ/16م، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (إرسيكا)، إستانبول، 2010م، مج1، ص131.

المحيط الهندي أمام البرتغاليين[144]، وبعد عودته إلى اليمن اتجه إلى المخا[145]، ومن هناك بدأ بمراسلة الناخوذة أحمد حاكم زَبِيْد المملوكي الذي كان على ما يبدو متخوفاً من غدر سليمان الخادم بعد أن سمع بغدره بالسلطان عامر بن داود في عدن، وبعد عهود ومواثيق من سليمان الخادم خرج الناخوذة أحمد لمقابلته، فلمّا توجه إليه أمر بقتله في الحال[146] ثم دخل زَبِيْد وقضى على سلطة المماليك فيها.

وبعد القضاء على الطاهريين والمماليك لم يبقَ أمام سليمان باشا الخادم إلا قوة الإمام شرف الدين، فبدأ في مراسلته من زَبِيْد محاولاً استدراجه، لكن الإمام امتنع عن مقابلته، ومن المرجح أن سليمان الخادم، كان يعلم أنه لن يتمكن من القضاء على الإمام شرف الدين بتلك السهولة التي قضى بها على السلطان عامر بن داود في عدن والناخوذة أحمد في زَبِيْد، اللذين كانا في موقف ضعيف، ولم يحققا شيئاً يذكر مع الإمام شرف الدين حتى غادر اليمن [147].

وبعد مغادرة سليمان باشا الخادم اليمن أرسل إلى السلطان العثماني سليمان القانوني تقريراً مفصلاً، وضح فيه الجهود التي قام بها من أجل إدخال اليمن تحت السيطرة الفعلية والمباشرة للدولة العثمانية، وأورد تصوراً بشأن كيفية السيطرة على اليمن وحاجتها إلى الجنود والأسلحة والمستلزمات الأخرى، واقترح أن تكون زَبِيْد مركزاً لولاية اليمن وليس عدن، وهي قلعة تقع في داخل الجبال[148]، كما تضمن التقرير أنه "أخذ من البلاد مالا يمكن حصره ولا عده، وكتب اسم كل ضيعة وقرية ليس فيها إلا بقرتين، وعظَّم الأمر، كي لا يقال ضاع سفره سدى"[149].

وممّا لا شك فيه أن العلاقة بين الإمام شرف الدين والعثمانيين بدأت سلمية، يتضح ذلك من الرسالة التي أرسلها سليمان الخادم للإمام، كذلك من المرسوم الذي أرسله السلطان سليمان القانوني إلى الإمام، وهذا المرسوم يُعبّر عن أن السلطان يعامل الإمام وكأنه قد دخل في طاعته، وذلك بناءً على المبالغات التي أوردها سليمان باشا الخادم للسلطان سليمان، رغم أن الرسائل التي تبودلت بينه وبين الإمام في أثناء إقامته في زَبِيْد لم تؤدِ إلى شيء، ولا تعبّر عن دخول الإمام في طاعة العثمانيين [150].

وكان من أهم نتائج حملة سليمان باشا الخادم أن أدخل جزء من اليمن تحت السيادة العثمانية، وأصبحت اليمن مقسمة إلى قسمين: الساحل بيد العثمانيين، وتمتد من جيزان شمالاً إلى عدن والشّحر [151] جنوباً، القسم الثاني هو المناطق الداخلية بيد الإمام شرف الدين [152].

وبعد مغادرة سليمان باشا الخادم اليمن حاول العثمانيون التوسع في المناطق الداخلية، فكيف كان ذلك التوسع؟ وماهي الظروف التي ساعدتهم على ذلك؟ وماهي النتائج التي ترتبت على هذا التوسع؟

(144) شهاب: عدن فرضة اليمن، ص222-226؛ العمري، حسين بن عبدالله: تاريخ اليمن الحديث والمعاصر (922-1336هـ/ 1516-1918م) من المتوكل إسماعيل إلى المتوكل يحيى حميد الدين، ط1، دار الفكر، دمشق، 1997م، ص13-14.

(145) المخا: مدينة مشهورة على ساحل البحر الأحمر، تقع إلى الغرب من تعز بمسافة أربعة وتسعين كيلو متر. (الحجري: مجموع بلدان اليمن، مج2، ج4، ص694؛ المقفحي، إبراهيم بن محمد، معجم البلدان والقبائل اليمنية، ط2، دار الكلمة، صنعاء، 1985م، ص593.

(146) ابن داعر: الفتوحات المرادية، مج1، ق168أ.

(147) ابن داعر: الفتوحات المرادية، مج1، ق168أ.

(148) بيَّات: البلاد العربية في الوثائق العثمانية، مج1، ص130-131.

(149) النهروالي: البرق اليماني، ص86.

(150) سالم: الفتح العثماني، ص179-180.

(151) الشَّحْر: مدينة على ساحل حضرموت، تقع على مسافة 680كيلومتر إلى الشرق من عدن (العامر، عبدالحكيم صالح عبدالله: السلطان بدر بن عبدالله بن جعفر الكثيري المكني (أبو طويرق) 902-977هـ/1496-1569م، ط1، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، 2006م، ص135).

(152) هُديل وآخرون: دور السواحل اليمنية، 140-141.

ثانياً: الصراع بين أسرة الإمام شرف الدين وتوسع العثمانيين في مناطق نفوذه:

لقد حاولت الدولة العثمانية التفاوض مع الإمام شرف الدين، فهو لا يزال قوياً ومسيطراً على معظم أجزاء اليمن الداخلية، فأرسلت حسن بهلوان[153] لأداء هذه المهمة، بيد أن تلك المفاوضات لم تنته إلى شيء، وتصور بعض المصادر التاريخية أن مهمة حسن بهلوان لم تكن للتفاوض فقط، بل للاستفادة من وجوده لدى الإمام، والقيام بعمل تخريبي يزعزع سلطته، ذلك العمل هو قتل أحد أبنائه إما المطهر أو شمس الدين؛ لأن دولته وسلطته تقوم على أكنافها، لكنه لم يتمكن من إنجاز هذا العمل، وعوتب بعد عودته[154]، غير أن التصور بأن خطر الإمام شرف الدين سيزول إذا ما تمّ القضاء على أحد أبنائه تصور غير منطقي، من المرجح أنه لن يفكر فيه العثمانيون؛ لأن مقتل المطهر أو شمس الدين سيوحد أسرة الإمام شرف الدين تحت قيادة واحد منهم، خاصة أنهما شخصيتنا قياديتان، وهذه سنة الله في الكون، ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا**﴾ [155]. وقد أثبتت الأيام ذلك، فقد تنازع المطهر وشمس الدين على السلطة والنفوذ، ودخلا في صراع من أجل ذلك، لذا فإن إقدام العثمانيين على ذلك ربما أنه غير وارد.

وفي عام 947هـ/1540م عُيّن مصطفى باشا النشار والياً على اليمن، واستمرت ولايته حوالي خمس سنوات، لم يتخللها صراعات مهمة بين العثمانيين وقوة الإمام شرف الدين، إلى أن عُيّن على اليمن والياً جديداً هو أويس باشا، الذي وصل إلى تهامة على رأس قوات كبيرة، مزودة بمعدات حربية ضخمة عام 952هـ/1546م[156]، وفي عهده بدأ الصدام الحقيقي بين العثمانيين والإمام شرف الدين، فعند وصوله بدت الأمور وكأنها مهيأة لبدء توسع العثمانيين في مناطق نفوذ الإمام شرف الدين، إذ كان الخلاف بين المطهر من ناحية ووالده الإمام شرف الدين وابنه شمس الدين من ناحية أخرى قد بلغ ذروته[157].

لقد ارتكب الإمام شرف الدين خطأً كان من العوامل المهمة في انهيار سلطته، ذلك أنه في عام 947هـ/1540م عند أن كان قد بلغ السبعين من عمره، وشعر بالضعف، وعدم المقدرة على إدارة شؤون دولته أوكل الأمر إلى أبنائه، ووزع عليهم بعض الحصون والمناطق [158]، وأصبح كل واحد منهم يحكم منطقته بشكل مستقل، وكان لذلك دور في تفتيت السلطة وإثارة التنافر والتباغض بين الإخوة.

ويورد بعض المؤرخين سبباً آخر لضعف أسرة الإمام شرف الدين وهو أن الإمام جعل ولاية العهد لابنه علي دون ابنه الأكبر المطهر، وكانت حجته في ذلك أن علياً كان أكثر علماً، وأفضل خلقاً من المطهر، وقد اتخذ الإمام من إصابة المطهر بالعرج ذريعة لإبعاده عن الإمامة، وأيضاً لشراسته وشدة بطشه بالرعايا. وأن هذا كان سبباً للتباغض والاختلاف بين الأخوة [159].

(153) حسن بهلوان: هو من المماليك الذين كانوا في اليمن ثم دخلوا في خدمة العثمانيين بعد حملة سليمان باشا الخادم وكان ومن معه يخطط للاستحواذ على السلطة العليا في اليمن والاستقلال، فتصدى له أزدمر باشا مما اضطر إلى الفرار ومعه بعض أتباعه، غير أنهم قُتلوا في الطريق على أيدي رجال قبيلة (بني غصين). (سالم: الفتح العثماني، ص187)

(154) ابن داعر: الفتوحات المرادية، مج1، ق167ب؛ ابن القاسم: غاية الأماني، ج2، ص686-688.

(155) سورة [الأنبياء:22].

(156) سالم: الفتح العثماني، ص183.

(157) للمزيد من التفاصيل حول أسباب الخلاف أنظر: ابن لطف الله: روح الروح، ج1، ص64-67؛ ابن القاسم: أنباء الزمن في تاريخ اليمن، مخطوط، ج2، ق304أ- 307ب.

(158) ابن المفضل: السلوك، ص252-254.

(159) ابن داعر: الفتوحات المرادية، مج1، ق168أ؛ النهروالي: البرق اليماني، ص56-95؛ سالم: الفتح العثماني، ص177-178.

وقد ذكر البعض الآخر من المؤرخين أن الإمام شرف الدين عندما جمع أبناءه وأوصاهم بحفظ الحصون والدفاع عنها أكد عليهم بأنه إن "فتح الله سبحانه بقائم حق سلموها إليه، وكانوا من الأعوان المجاهدين، وهذا الذي نظرت فيه وأعددته"[160]، غير أنه من المرجح صحة الرواية الثانية، فإذا ما تساءلنا ما هو موقف المذهب الزيدي من ولاية العهد؟ سنجدها غير موجودة، حتى وإن كان الإمام يميل إلى أن يكون ابنه علي ولياً للعهد، فلا يستطيع أن يعلن بذلك صراحة، خاصة في تلك المدة. وممّا يرجح صحة الرواية الثانية أن الإمام شرف الدين عندما شعر أنه لم يعد يستطيع ممارسة مهام الإمامة بسبب كبر سنه راسل آل المؤيد في صَعْدَة وطلب منهم اختيار من تتوفر فيه شروط الإمامة [161]. كما اتضح من خلال ما أورده بعض المؤرخين أن الإمام شرف الدين كان يميل إلى ابنه شمس الدين وليس علي. إلا أن الشيء المؤكد أن صراعاً قد نشب داخل أسرة الإمام شرف الدين، وأن ذلك الصراع كان أحد العوامل الذي سهل للعثمانيين التوسع في مناطق نفوذه [162]. وقد بُذلت محاولات من بعض أعيان الدولة لإزالة تلك الخلافات، إلا أنها فشلت [163]، واشترط المطهر على أبيه الإمام وإخوته أن يسلموا له الحصون التي يريدها، لكنهم رفضوا، عند ذلك بدأ المطهر بأعمال عسكرية ضد والده، وأخيه شمس الدين، بل أنه أرسل عدد من جنوده وأتباعه لاعتقال والده، فدخلوا الجراف [164] ونهبوه وحاصروا الإمام، إلا أنهم لم يتمكنوا؛ إذ خرجت قوة من أنصار الإمام لنجدته، ونشبت معركة بين الطرفين، هُزمت فيها قوات المطهر وانسحبت [165].

وبعد هزيمة المطهر بدأ بمراسلة القبائل يحرضها على نقض الولاء لوالده الإمام، وإبعاد ولاته وحكامه، فاستجاب الكثير منهم للمطهر، وامتنعوا عن دفع الواجبات المقررة عليهم [166]. ولم يكتف المطهر بذلك فقد راسل الوالي العثماني الجديد أويس باشا، الذي وصل إلى اليمن عام 952هـ/1546م، فعند أن كان في زَبِيْد حرضه المطهر على محاربة الإمام شرف الدين والقضاء على سلطته في اليمن، والاستيلاء على المناطق الخاضعة له [167].

وممّا لاشك فيه أن هذه فرصة ثمينة لأويس باشا، لابد أن ينتهزها، فبدأ بالتحرك إلى تَعِز لاحتلالها، فوصلها وجنوده في أواسط ذي الحجة 952هـ/فبراير 1546م وحاصرها، وبالرغم من التحصينات التي قام بها حاكمها المعُين من الإمام، إلا أنها سقطت في يد العثمانيين، بسبب المدفعية التي استخدمها العثمانيون في تدمير الحصون [168]، وبعد استيلاء أويس باشا على تَعِز توجه بجيشه إلى ذمار [169]، بيد أن أويس باشا قُتل هناك على يد أحد أمراء المماليك في ثورة عصيان قاموا بها ضد ولايته [170] في ربيع الآخر 954هـ/يونيو 1547م.

وأورد الأستاذ الدكتور سيد مصطفى سالم أسباباً أخرى سهلت للعثمانيين سرعة التوسع في المناطق الجنوبية،

(160) ابن المفضل: السلوك الذهبية، ص254.
(161) زبارة: أئمة اليمن، ج1، ص444.
(162) لمزيد من التفاصيل انظر: القاسم: غاية الأماني، ج2، ص690-692؛ زبارة: أئمة اليمن، ج1، ص425-427.
(163) ابن المفضل: السلوك، ص258-259.
(164) الجراف: كانت قرية شمال مدينة صنعاء، وأصبحت اليوم جزء من العاصمة صنعاء، نتيجة التوسع العمراني.
(165) ابن المفضل: السلوك، ص259.
(166) ابن لطف الله: روح الروح، ج1، ص64.
(167) ابن داعر: الفتوحات المرادية، مج1، ق168أ؛ ابن القاسم: غاية الأماني، ج2، ص693.
(168) ابن داعر: الفتوحات المرادية، مج1، ق168أ-168ب؛ العمري: تاريخ اليمن الحديث والمعاصر، ص16.
(169) الموزعي: الإحسان، ص30.
(170) العمري: تاريخ اليمن، ص16.

منها: ضعف الحكم الزيدي في جنوب اليمن، وفساد بعض الولاة هناك، فقد سارع أهالي بعض الجهات الجنوبية عند تقدم العثمانيين إلى تعز إلى إعلان تمردهم على الولاة المعينين من الإمام شرف الدين، كما سارع آخرون إلى الدخول في طاعة العثمانيين [171].

وبسبب هذه التطورات كتب الإمام لابنه المطر شرح له خطورة الموقف، وضرورة التماسك للوقوف في وجه العثمانيين والقبائل التي خلعت ولاء الطاعة للإمام، بعد أن علمت بالخلاف بينهم، كما أقنع أبناءه الآخرين بضرورة التصالح مع المطهر [172].

وعلى ما يبدو أن المطهر كان ينتظر هذا الموقف من والده، وبدا الأمر وكأن المطهر لم يراسل القبائل والعثمانيين إلا من أجل الضغط على والده وإخوته أو يبرهن لهم بأنه القادر على مواجهة هذه القوى، ورغم ذلك يتآمرون عليه، وعندما شعر الإمام بخطورة الموقف، وأنه لا بد من التصالح مع المطهر، عندئذ أملى المطهر شروطه عندما وصل إليه خطاب والده وهو في ثِلَا، فأجاب عن والده قائلاً: "إني لا أدفع عنكم شراً، ولا أسد ثغراً، ولا أقاتل العدو، ولا أمنع من أرادكم بسوء إلا بتسليم صَنْعَاء وجميع الحصون، وما فيها من المخزون، والعدة والسلاح، وآلة الحرب والكفاح"[173]، فوافق الإمام على شروط المطهر التي وضعها للصلح وأهمها:

1- أن تكون السلطة العليا في يد المطهر.

2- انسحاب الإمام شرف الدين وابنه شمس الدين إلى حصن كوكبان، التي أصبحت لشمس الدين.

وبذلك تحرك المطهر من ثِلَا إلى صَنْعَاء لاستلامها، وضرب السكة باسمه، وقبض على بعض أنصار والده وصادر ممتلكاتهم، وأصبح الرجل الأول دون منازع [174].

وبذلك بدت الأمور وكأن الخلافات قد سويت وانتهت، واحتل المطهر مكانه الطبيعي، وأصبح يمسك بزمام الأمور في المناطق التابعة لوالده ولكن في حقيقة الأمر لم تنته الخلافات ولم تُحسم، فقد تخلى عنه بعض إخوته عندما وقع الصدام بينه وبين العثمانيين فيما بعد، بل وتآمر البعض الآخر ضده كما سنرى لاحقاً، لأنهم كانوا يحقدون عليه بسبب انتصاره عليهم، والاستيلاء على كثير من مناطق نفوذهم [175].

أما العثمانيون فقد تمكّن الأمير أزدمر باشا – أحد القادة العسكريين العثمانيين في اليمن– من إعادة تنظيم صفوفهم بعد مقتل أويس باشا، وواصل الزحف نحو صَنْعَاء.

سبق أن ذكرنا أن المطهر حرض أويس باشا للتقدم للاستيلاء على صَنْعَاء، ولكن الآن أصبحت تحت سيطرته هو، وأصبح والده محصوراً في كوكبان، لذا فمن الطبيعي أنه سيواجه العثمانيين؛ لأنها أصبحت ضمن مناطق نفوذه، فعندما وصلوا إلى الغرب من صَنْعَاء خاض معهم معارك عنيفة [176]، بيد أن الأسلحة الحديثة وتنظيم الجيش العثماني وتخلي كثير من إخوة المطهر عنه ساعد في دخول العثمانيين صَنْعَاء والاستيلاء عليها في 13 ربيع الثاني 954هـ/1547م، بينما انسحب المطهر إلى ثِلَا [177].

(171) سالم: الفتح العثماني، ص185.
(172) ابن لطف الله: روح الروح، ج1، ص64-65.
(173) ابن القاسم: غاية الأماني، ج2، ص695-696.
(174) ابن لطف الله: روح الروح، ج1، ص64-67.
(175) سالم: الفتح العثماني، ص186.
(176) شرف الدين: اليمن عبر التاريخ، ص261.
(177) الموزعي: الإحسان، ص31؛ ابن القاسم: أنباء الزمن، ق310ب-311أ.

وممّا لاشك فيه أن موقف المطهر من أبيه الإمام وإخوته قد جعل البعض من إخوته ينضم إلى العثمانيين في حروبهم مع المطهر، وفي مقدمتهم شمس الدين الذي بذل جهداً في مساعدة العثمانيين ضد أخيه المطهر [178]، وأسهم في الحملات العسكرية التي كان يقودها أزدمر باشا ضد المطهر، وقد تم تكريمه من قبل الدولة العثمانية بترقيته، فزادت المخصصات المادية الممنوحة له [179].

واقتصرت سيطرة المطهر على مناطق نفوذه في الشمال الغربي من صَنْعَاء، وهي منطقة معروفة بشدة وعورتها، وقد اتخذ من حصن ثِلَا المنيع مركزاً له[180]، ودارت معارك وحروب كثيرة بين العثمانيين والمطهر ولم يستطيع الوالي العثماني أزدمر باشا أن يحقق نصراً يذكر على المطهر، رغم حصاره له في ثِلَا حوالي أربعين يوماً، وكانت خسائر العثمانيين كبيرة في هذه الحروب والتف كثير من اليمنيين حول المطهر، مما اضطر ازدمر باشا إلى طلب مدداً عسكرياً للقضاء على المطهر، فأرسلت الدولة العثمانية مصطفى باشا النشار على رأس قوة عسكرية كبيرة وصلاحيات واسعة، ودارت حروب بين الطرفين "يقصر عن وصفها الواصفون، ويعجز عن رقمها الكاتبون"[181]، واستمر حصار حصن ثلاث سبعة أشهر دون أن يحرز العثمانيون على المطهر نصراً حاسماً، لأسباب كثيرة، لا مجال لذكرها، لأنها ليست في صلب موضوعنا[182].

أما الإمام شرف الدين فبعد خروجه من صَنْعَاء عام 953هـ/1546م أقام في كوكبان لدى ابنه شمس الدين، لمدة عامين، ثم انتقل إلى كحلان تاج الدين [183] عام 955هـ/1548م، وكان يراسل بعض القبائل من هناك ويحرضهم على محاربة الأتراك [184]، ثم انتقل إلى الظفير بحجة، وشغل أوقاته بالعبادة والتدريس حيث كان قد ضعف بصره، وقبل وفاته بعامين توفي ابنه شمس الدين عام 963هـ/1555م، ودفن في كوكبان، وكتموا وفاة شمس الدين عن أبيه، الذي لم يعلم به [185].

وفي 7 جمادى الآخرة 965هـ/1557م توفي الإمام شرف الدين بحصن الظفير بحجة، وحضر وفاته أبناؤه المطهر وعبدالله ورضى الدين، وكان عمره عند وفاته قد ناهز الثامنة والثمانين عاماً [186].

الخاتمة:

لقد لمسنا خلال البحث الدور البارز الذي لعبه الإمام شرف الدين يحيى بن شمس الدين، واتضح لنا كيف تمكن من الظهور وتحقيق ما كان يطمح إليه بعد مقتل السلطان عامر بن عبدالوهاب آخر سلاطين الدولة الطاهرية الأقوياء.

ودخل الإمام شرف الدين في حروب مع مراكز القوى الأخرى في اليمن، وقد باشر تلك المهمة بعد توجهه من الظفير بحجة إلى ثِلَا، وأصبح عهده سلسلة من الحروب، كانت ترجح كفة الإمام شرف الدين في معظمها، حتى تمكّن من بسط سيطرته على معظم

(178) ابن القاسم: أنباء الزمن، ج2، ق314أ.
(179) بيات: البلاد العربية، مج2، ص20.
(180) شرف الدين: اليمن عبر التاريخ، ص261.
(181) ابن القاسم: أنباء الزمن، ج2، ق318ب.
(182) للمزيد عن ذلك انظر بحث أمة الغفور عبدالرحمن الأمير: خطاب السلطان سليمان القانوني إلى المطهر بن الإمام شرف الدين في اليمن 957هـ/1550م وجواب المطهر عليه 958هـ/1551م، بحث مقدم إلى مجلة إرسيكا، استانبول، بحث مقبول للنشر، عام 2023م.
(183) كحلان تاج الدين: هي عاصمة مديرية كحلان عفّار التابعة لمحافظة حجة، في الشمال الشرقي منها، على بعد 7كم. (المقحفي: معجم البلدان، مج2، ص1329).
(184) ابن المفضل: السلوك، ص263-264.
(185) زبارة: أئمة اليمن، ج1، ص450-451.
(186) ابن المفضل: السلوك، ص269.

مناطق اليمن، فبدأ بمواجهة المماليك، وتمكن من دخول صَنْعَاء بعد إخراجهم منها، وحصرهم في منطقة تهامة، كما دخل في حروب مع الأشراف والأئمة في المناطق الشمالية، كان الأشراف خلال تلك الحروب يتراجعون وتضعف قوتهم في الوقت الذي كان فيه الإمام شرف الدين يزداد قوة ونفوذاً؛ إذ وصل إلى أقصى المناطق الشمالية حتى نجران.

أما بعض الأئمة الذين أعلنوا إمامتهم وتحالفوا مع الأشراف ضده فقد تمكن من إضعافهم وإخضاعهم، ولم يصبح لهم دور يذكر، كما تمكن من بسط نفوذه على كثير من مناطق الإسماعيليين بعد دخوله في حرب معهم.

ولكي يبسط نفوذه عن المناطق الجنوبية التي كانت تابعة للدولة الطاهرية كان عليه محاربتهم، وقد ساعدته الظروف، حيث دخلت الأسرة الطاهرية في نزاع مستمر فيما بينهم، عند ذلك تمكن الإمام شرف الدين من إخراجهم من مناطقهم والاستيلاء على ممتلكاتهم وذخائرهم وحصرهم في عدن حتى مجيء حملة سليمان باشا الخادم العثمانية، التي قضت على ما تبقى من الدولة الطاهرية فيها.

إلا أن عهد الإمام شرف الدين بدأ بالضعف بعد مغادرة حملة سليمان باشا الخادم بفترة قصيرة، وكان هناك أسباب ساعدت على ذلك لعل أهمها قوة العثمانيين العسكرية والحربية، والصراع الذي دار داخل أسرة الإمام، خاصة بين أبنائه المطهر وشمس الدين، لقد أتاح ذلك للعثمانيين الفرصة للتوسع في مناطق نفوذ الإمام، وأضطر الإمام شرف الدين إلى العودة إلى الظفير بحجة وهي المنطقة التي انطلق منها في بداية توسعه.

ومن البدهي أن يهتم الإمام شرف الدين بالعلم والعلماء، فهو واحد من العلماء المجتهدين، ترك الكثير من المؤلفات، والتي أهمها كتابه في الفقه "الأثمار" الذي ذاع صيته، كما كان شاعراً وأديباً.

النتائج والتوصيات:

في ختام هذ البحث توصلت الباحثة الى عدد من النتائج هي:

- سيطرة الإمام المتوكل على الله شرف الدين على كثير من مناطق الأشراف والأئمة في أقصى الشمال حتى وصل إلى نجران.
- تمكّنه من إضعاف بعض الأئمة الذين أعلنوا إمامتهم وتحالفوا مع الأشراف ضده، كما تمكّن من بسط نفوذه على كثير من مناطق الإسماعيليين بعد دخوله في حرب معهم.
- بسط الإمام شرف الدين نفوذه عن المناطق الجنوبية التي كانت تابعة للدولة الطاهرية باستثناء عدن.
- إعلان المماليك تبعيتهم وولاءهم للدولة العثمانية، إلا أنه لم يعد بمقدورهم أن يؤدّون دوراً مؤثراً في الأحداث اليمنية، خلال حكم الإمام المتوكل على الله شرف الدين.
- خاضت القوى موضوع الدراسة حروباً وصدامات حاولت كل منها توسيع نفوذها على حساب القوى الأخرى.
- ظهور العديد من الصراعات والخلافات التي دارت داخل أسرة الإمام شرف الدين، خاصة بين إبنيه المطهر وشمس الدين، ومن ثَمّ أدت إلى ضعف حكمه.
- أدركت الدولة العثمانية أهمية اليمن وموقعها في باب المندب في البحر الأحمر وتحكمها بحركة

الملاحة والتجارة البحرية العالمية والإقليمية، لذلك قامت بالسيطرة عليها.

كم توصلت الباحثة الى عدد من التوصيات:

- ضرورة الاهتمام بشخصية الإمام المتوكل على الله شرف الدين يحيى بن شمس الدين ودوره السياسي في تاريخ اليمن الحديث.
- توثيق بعض الكتابات والآراء التي كتبت عن الإمام المتوكل على الله شرف الدين وعلاقته بمراكز القوى في اليمن، خلال مدة موضوع الدراسة (877-965هـ/ 1473-1558م)، لكي يستفيد منها الباحثون.
- معرفة وبشكل أوسع العوامل الرئيسة التي كانت وراء ضعف موقف الإمام شرف الدين وسيطرة العثمانيين على كثير من مناطق نفوذه.
- دراسة أثر الصراع بين أسرة الإمام شرف الدين، وما ترتب على ذلك من توسع العثمانيين في مناطق نفوذه، حتى وصلوا إلى صَنْعَاء
- ضرورة إبراز الأحداث والوقائع التاريخية لهذه الفترة موضوع الدراسة للاستفادة منها.

قائمة المصادر والمرجع

أولاً: المخطوطات:

[1] ابن داعر، عبدالله بن صلاح الدين: الفتوحات المرادية في الجهات اليمانية، مخطوط محفوظ في مكتبة جامعة تورنتو، كندا.

[2] رسائل الإمام شرف الدين يحيى بن شمس الدين، مخطوط محفوظ بدار المخطوطات، المكتبة الغربية، صَنْعَاء، رقم 570.

[3] ابن القاسم، يحيى بن الحسين: أنباء الزمن في تاريخ اليمن، مخطوط محفوظ بمكتبة العلامة محمد بن محمد المنصور.

[4] ابن لطف الله، عيسى: روح الروح فيما جرى بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح، (مخطوط مصور)، ط2، دار الفكر، دمشق، 1981م.

ثانياً: المصادر والمراجع المطبوعة:

[1] الأكوع، إسماعيل بن علي: هجر العلم ومعاقله في اليمن، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1995م.

[2] بيات، فاضل: البلاد العربية في الوثائق العثمانية، النصف الأول من القرن 10هـ/16م، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (إرسيكا)، إستانبول، 2010م

[3] الجاسر، حمد: المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، در اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، 1977م.

[4] الجمل، سيار: العثمانيون وتكوين العرب الحديث، ط1، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1989م.

[5] الحبشي، عبدالله بن محمد: مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن، مركز الدراسات اليمنية، صَنْعَاء، (د. ت).

[6] الحجري، محمد بن أحمد: مجموع بلدان اليمن وقبائلها، تحقيق: إسماعيل بن علي الأكوع، ط1، دار النفائس، بيروت، 1984م.

[7] الحصري، ساطع: البلاد العربية والدولة العثمانية، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، 1965م.

[8] الحميري، أمل عبد المعز: موقف بريطانيا من جزيرتي سقطرى وكمران من الاحتلال إلى الاستقلال، ط1، نور حوران للدراسات والنشر والتراث، دمشق، 2021م.

[9] ابن الدبيع، عبدالرحمن بن علي بن محمد: الفضل للمزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زَبِيْد، تحقيق: يوسف شلحد، دار العودة، بيروت، 1983م.

[10] ابن الدبيع، عبدالرحمن بن علي: قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، ط2، (د.م)، 1988م.

[11] زبارة، محمد بن محمد: أئمة اليمن، مطبعة النصر الناصرية، تعز، 1952م، ج1.

[12] سالم، سيد مصطفى: الفتح العثماني الأول لليمن (1538-1635م)، ط3، مطبعة الجبلاوي، القاهرة، 1977م.

[13] شرف الدين، أحمد حسين: اليمن عبر التاريخ من القرن الرابع عشر قبل الميلاد إلى القرن العشرين (دراسة

جغرافية تاريخية سياسية شاملة)، ط2، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 1964م.

[14] الشماحي، عبدالله بن عبدالوهاب، اليمن الإنسان والحضارة، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، 1985م.

[15] الشناوي، عبدالعزيز بن محمد: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1986م.

[16] شهاب، حسن صالح: عدن فرضة اليمن، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صَنْعَاء، (د.ت).

[17] الشوكاني، محمد بن علي: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار المعرفة، بيروت، (د. ت).

[18] العامري، عبدالحكيم صالح عبدالله: السلطان بدر بن عبدالله بن جعفر الكثيري المكنى (أبو طويرق) 902-977هـ/1496-1569م، ط1، مركز عبادي للدراسات والنشر، صَنْعَاء، 2006م.

[19] العبدلي: أحمد فضل: هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، ط2، دار العودة، بيروت، 1980م.

[20] العمري، حسين بن عبدالله: تاريخ اليمن الحديث والمعاصر (922-1336هـ/ 1516-1918م) من المتوكل إسماعيل إلى المتوكل يحيى حميد الدين، ط1، دار الفكر، دمشق، 1997م.

[21] العمري، حسين بن عبدالله: المؤرخون اليمنيون في العصر الحديث، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1988م.

[22] الفسيل، سامية محمد عبدالله: المحاولات البرتغالية التوسعية في السواحل اليمنية خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي وتداعياتها، أطروحة دكتوراه، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية، ماليزيا، 2013م.

[23] ابن القاسم، يحيى بن الحسين: غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق: سعيد عاشور، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1968م.

[24] الكبسي، محمد بن إسماعيل: اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية، (د. م)، (د.ت).

[25] لقمان، حمزة علي: تاريخ الجزر اليمنية، مطبعة فيليب الجميل، بيروت، 1972م.

[26] مصطفى، أحمد عبدالرحيم: في أصول التاريخ العثماني، ط2، دار الشروق، بيروت، 1993م.

[27] ابن المفضل: محمد بن إبراهيم: السلوك الذهبية في خلاصة السير المتوكلية اليحيوية (877-965هـ/1473-1558م)، حققها وقارن أصولها أمة الملك الثور، أمة الغفور الأمير، إشراف ومراجعة: حسين العمري، ط1، مركز التراث والبحوث اليمني، صَنْعَاء، 2021م.

[28] المقحفي، إبراهيم أحمد: معجم البلدان والقبائل اليمنية، ط2، دار الكلمة، بيروت، 1985م؛ أخرى: ط3، دار الكلمة، بيروت، 2002م.

[29] الموسوعة اليمنية، إعداد وإشراف وتحرير: أحمد جابر عفيف وآخرون، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1992م.

[30] الموزعي، شمس الدين عبدالصمد بن إسماعيل: دخول العثمانيين الأول إلى اليمن المسمى الإحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان، تحقيق: عبدالله الحبشي، دار التنوير، بيروت، 1986م.

[31] النهروالي، قطب الدين محمد بن أحمد: البرق اليماني في الفتح العثماني، دار اليمامة، الرياض، 1967م.

[32] هُديل، طه حسين وآخرون: دور السواحل اليمنية في تحقيق الإستراتيجية العثمانية في البحر الأحمر، 1538-1635م، ط1، نور حوران للدراسات والنشر والتراث، دمشق، 2021م.

[33] الواسعي، عبدالواسع بن يحيى: تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث تاريخ اليمن، ط1، مكتبة الإرشاد، صَنْعَاء، 2007م.

[34] الويسي، حسين بن عبدالله: اليمن الكبرى، كتاب جغرافي جيولوجي تاريخي، ط2، مكتبة الإرشاد، صَنْعَاء، 1991م.